قصص القرآن- صياغة صحيحة

الجزء الأوّل

اسم الكتاب: **قصص القرآن.. صياغة صحيحة ..الجزء الأول**

اسم المؤلف: أ. إبراهيم أحمد قشطة

الطبعة الأولى:: ١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر جوال ٠٥٩٩٩٢٠٥٤٨

تنسيق الكتاب و تصميم الغلاف: **د. نافذ الجعب**

قصص القرآن

صياغة صحيحة

الجزء الأوّل

أ.إبراهيم أحمد قشطة

رفح- فلسطين

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م.

الطبعة الأولى

إلى الباحثين عن الحقيقة في
كل زمان ومكان

المحتويات

المقدمة ١

مدخل ٣

القصّة في القرآن الكريم ٣

قصّة ابني آدم ١٥

قصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه ٢٣

قصّة الذبيح ٢٩

قصّة بناء الكعبة ٤٣

قصّة سحرة فرعون ٥١

قصّة مؤمن آل فرعون ٦٩

قصّة بقرة بني إسرائيل ٨٣

قصّة عجل السامري ٩١

قصّة موسى مع الخَضِر - عليهما السلام - ١٠٣

قصّة قارون ١١٥

قصّة طالوت وجالوت ١٢٧

قصّة سُليمان مع ملكة سبأ ١٤٧

قصّة كفالة زكريا لمريم ١٧٥

قائمة المراجع ١٨١

المقدمة

إنَّ الحمد الله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنَّ محمّدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع، والضلالات، والنيران.

وبعد:

القصّةُ لونٌ محبب إلى القلوب، وكذلك لها الأثر الكبير الطيب في النفوس، كما ولها الوقع الملحوظ الملموس؛ لذا " لا غروَ أن يروع القرآن أمّة العرب بنحو خمسين قصّة، وأن تسمى باسم (القَصص) بعض سوره، وكذلك ترد كلمة القصّة، وما ينصرف منها، مثل: نقصّ، القصص، اقصص، وما يتصل بها في خمسة عشر موضعاً." (محمود تيمور)

وقد جاء هذا الكتاب (قصص القرآن – صياغة صحيحة، الجزء الأوّل) يروي ثلاث عشرة قصّة من قصص القرآن الطيبة الكاملة العطرة، متوخيًا التثبت من الأخبار، والتنقيح للأحاديث والآثار، فترك الغثَّ الضعيف، وأخذ الصحيح السمين، فاعتمد الكتاب على أوثق المصادر على الإطلاق ألا هو كتابُ الله الكريم، الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأكثر الاستشهاد بآياته الطيبات الكريمات، ثم تلاها بكلام المفسرين الموثوقين، كما ولم يثبت الكتاب إلّا ما صحَّ من أحاديث كلام سيد المرسلين.

وقد نبذ الكتاب الروايات الإسرائيليّة نبذًا، وطرحها أرضًا، كونها لا تضيف أية فائدة حقيقيّة للقَصة القرآنية الكاملة النقيّة، كما ولم ينس الكتاب الفوائد الجلائل من القصص القرآنية المذكورة فيه، فقطف منها ما أينع وطاب.

وفي الختام لا أدّعي أنّي أتيتُ بما لم يأتِ به السابقون، فقد سبقني إلى هذا الجمع والعمل الكثيرُ من العلماء الفضلاء، بيد أنّهم لم يلتزموا فيه الاقتصار على ما ثبت من الأحاديث والروايات، بل تجدهم يسردون كثيرًا من الروايات الضعيفة لا سيما الإسرائيليّات، دون التعرّض لضعفها، إلّا في القليل النادر، وهذا يجعل المطالع لها يختل عليه الأمر، فلا يميّز بين الصحيح من غيره، ولكنهم – رحمهم الله – جمعوا لنا الكثير من الأخبار والأحاديث، ووفروا علينا كثيرًا من الجهد، فجزاهم الله خيرًا.

وأخيرًا أرجو أن أكون قد وفقتُ في اجتهادي هذا، فما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من نقص أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، آملًا أن ينفع الله تعالى بهذا الكتاب، وأن يُثيب من أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمامه.

إبراهيم أحمد قشطة

مدخل

القصّة في القرآن الكريم

تمهيد:

القصّة لونٌ محبب إلى القلوب، وكذلك لها الأثر الكبير الطيب في النفوس، ولها الوقع الملحوظ الملموس.

قال منّاع القطّان: " فالحادثةُ المرتبطة بالأسباب يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حبّ الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابيّة تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرفها، ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصّة اليوم فناً خاصًّا من فنون اللغة وآدابها، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أحسن تمثيل، ويصوّره في أبلغ صورة قَصص القرآن الكريم." (مناع القطان: ١٩٩٨)

معنى القصّة:

لغة: أصلها: القصّ: أي تتبع الأثر.

وكذلك القصّة: هي تتبع الأخبار، وتتابعها.

ويطلق على: (الحال، والشأن، والأمر، والخبر) قصّة.

والقصّة القرآنية اصطلاحاً: هي إخبارٌ عن الأمم الغابرة، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة.

قال القطّان: " وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، ذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه." (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

أنواع القَصص في القرآن الكريم:

القَصص في القرآن الكريم جاء على ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: قَصص الأنبياء، وتتضمن:

دعوة الأنبياء إلى قومهم، وكيف قوبلت دعوتهم من قومهم، وذِكْر الآيات والمعجزات التي أيدهم الله بها، وكذلك ذِكْر أظهر مراحل دعوتهم لأقوامهم، وخُتِمَت بِذِكْرِ عاقبة كلّ من المؤمنين والكافرين.

النوع الثاني: " قَصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، ونحوهم." (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

النوع الثالث: قَصص حدثت في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – مثل: غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وغزوة حُنين، وحادثة الهجرة، ومعجزة الإسراء والمعراج، وغيرها.

فوائد قَصص القرآن الكريم:

للقَصص القرآني فوائد عدّة، أهمّها:

١– إيضاح الأسس العامّة للدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي. (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

٢– تثبيت قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم، وكذلك قلوب أمّته، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (هود:١٢٠)

٣– تصدّيق الأنبياء السابقين، وإحياء ذكراهم، وتخليد آثارهم. (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

٤– إظهار صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – في إخباره عن الأمم السابقة.

٥– مقارعته أهل الكتاب بالحُجّة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ

إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (آل عمران: ٩٣) (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

٦- القصصُ عامّة نوعٌ من أهمّ أنواع الأدب التي تحبّها النفس، وتتذوقها الأسماع، وترسّخ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف: ١١١)

التكرار في قصص القرآن:

ذكر القرآنُ الكريم الكثيرَ من القَصص، وقد تكرر بعض منها في غير موضع، **فهل تتكرر القصّة القرآنية؟**

ذُكر: نعم، القَصص القرآني قد يتكرر مرّات عدّة، والدليل على ذلك تكرار الشخصيات بأسمائها.

وهذا ليس بصواب، حيث إن التكرار في القَصص القرآني ليس تكراراً آلياً بالمعنى المعروف للتكرار، إنما هو تكرارٌ يأخذ طابعاً متجدداً، فتارةً تذكر القصّة موجزة، وتارةً تذكر نفس القصّة بشكل فيه إطناب، ومرّة تجد في القصّة تقديم، ثم في موضع آخر تأخير، إلى غير ذلك من الصور المتعددة.

لذا في واقع الأمر لا يوجد تكرار في القَصص القرآني حسب معنى التكرار المعروف الآلي المملّ، كل ما في الأمر أنه تكرارٌ لقصّة واحدة بصورة متنوعة متجددة.

أمّا تكرار الشخصيات فيها لا يجعلها مكررة ألبتة، فإذا عمقنا نظرنا سنجد أن القصّة لم تذكر أشخاصًا بعينهم وحسب، ينظر لهم نظر البطولة والتضحية، وإنما هي تنظر إلى الأحداث والوقائع أوّلًا، ثم إلى الشخصيات ثانيًا.

ما الحكمة من هذا التكرار؟

تكرار القَصص القرآني حسب المعنى الذي ذكرناه فيه حِكَم عدّة، أهمّها:

١- إظهار بلاغة القرآن، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، وسردها بقوالب متجددة، وهذا أبعد من أن يملّ القارئ أو السامع من تكرار أحداثها، حيث تتجدد له معانٍ جديدة عند قراءة كل مواضعها.

٢- قوّة الإعجاز، فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي. (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

٣- الاهتمام بشأن القصّة لتمكين عبرها في النفس، فإنّ التكرار من طرائق التأكيد، وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصّة موسى مع فرعون؛ لأنَّها تمثّل الصراع بين الحقّ والباطل أتمّ التمثيل. (منّاع القطّان: ١٩٩٨)

٤- الإضافات الجديدة التي يحملها التكرار للقصّة في كل عرض، يزيد فائدتها، وإذا قُمتَ بضمّ هذه الجوانب المختلفة لبعضها بعضاً أنتجت موضوعاً متجانساً عن هذه القصّة.

٥- قال ابن قتيبة: " كانت وفود العرب ترد على رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وللإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئًا من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقَصص مثناة؛ لوقعت قصّة موسى إلى قوم، وقصّة عيسى إلى قوم، وقصّة نوح إلى قوم، وقصّة لوط إلى قوم.

فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القَصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الدين، فلمّا نشره الله – عزّ وجلّ – في كل قطر، وبثّه في آفاق الأرض، وعلم الأكابر والأصاغر، وجمع القرآن بين الدفتين زال هذا المعنى، واجتمعت الأنبياء في كل مصر، وعند كل قوم. (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة:

قبل الحَديث عن الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة، نطرح السؤال الآتي: **هل القصّة القرآنيّة حقيقيّة أم خياليّة؟**

وهذا السؤال من الأسئلة الخطرة، والتي يجب فيها الجزم والقول بوضوح، فمن أهمّ الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة أنها حقيقيّةٌ لا مجال فيها للخيال.

قال تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ (الكهف: ١٣)

وقال تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣﴾ (القصص: ٣)

لذلك يرى المحقّقون من العلماء: أنه يستفاد منها في معرفة حوادث التاريخ، وتعين على فهم أحداثه.

فالخصيصة الأولى للقصّة القرآنيّة: أنها حقيقيّةٌ.

الخصيصة الثانية: تنوّع القصّة القرآنيّة:

ويقصد بتنوّع القصّة القرآنيّة: أن الذي يُعرض من القصّة القرآنيّة القدر الذي يتفق مع الغرض الديني الذي سيقت من أجله.

فتجد مرّة تعرض القصّة من أوّلها:

مثال ذلك قصّة عيسى – عليه السلام، تبدأ بذكر مولده وبتفصيلات ذلك الميلاد بشكل واف وتامّ؛ لأنّ مولده هو المعجزة، وحوله قام الجدل.

وكذلك قصّة إسماعيل وإسحاق – عليهما السلام، تبدأ من أوّلها؛ لأنّ في مولدهما العبرة، فالأوّل رُزِقَ به إبراهيم على كبره، والثاني: بُشر به، وامرأته عجوز، وهو شيخ كبير.

وتجد مرّة أخرى تعرض نهاية القصّة: مثال ذلك: قصّة هود، وصالح، ولوط، وشعيب – عليهم السلام، فلم تعرض من قَصصهم إلّا الحلقة الأخيرة، وذلك لأنَّها أهمُّ الحلقات.

وتجد مرّة ثالثة قد تعرض القصّة من أولّها إلى آخرها: مثال ذلك: قصّة يوسف – عليه السلام.

ومرّة رابعة قد تعرض من القصّة بعض حلقاتها: مثال ذلك: قصّة إبراهيم – عليه السلام.

وهذا الخصيصة تقودنا للحَديث عن:

التفصيل في عرض القصّة القرآنيّة:

القصّة القرآنيّة لا تعنى بالتفصيل، فنرى قصّة هود – مثلاً – لم تذكر عن عاد شيئًا قبل تكذيبها، فلم تستفض في ذكر صفات عاد الحياتيّة، وحتى عملية الإرسال إلى هود قد تجاوزت عنها، فلم تذكر كيف نزول الوحي على هود، وإنما اختصرت كل ذلك، وقدمت لنا العذاب وصوره بألفاظ جزلة، تهزُّ العاطفة، وتستثير الانفعال.

ولا يعاب على القَصص القرآني إهمال هذه التفصيلات وغيرها، مثل: ذكر أماكن القصّة، وزمانها، ولا يعاب إهمال ذكر أسماء الشخصيات، كما ولا يعاب على القَصص القرآني إهمال الترتيب بين حوادثها، فالقرآن الكريم ليس بكتاب تاريخ، وبالتالي فالقَصص القرآني ليست قصصًا تاريخيّة تعنى بالتفصيلات الدقيقة، وإنما تعتني بالعظات والعبرة.

الخصيصة الثالثة: طيّ بعض الأحداث:

يقصد بطيّ بعض الأحداث هو ما نعني به الفجوات بين المشهد والمشهد، وذلك يكون بإبراز بعض المشاهد، ثم طيّ ما بينها من الروابط البدهيّة؛ ليترك للقارئ تخيّلها، وتصوّرها، وذلك كثير في القصص القرآني.

الخصيصة الرابعة: تنوع التصوير والمفاجآت:

فتنوع التصوير: هو تنوع العواطف، والانفعالات، ورسم الشخصيات.

أمّا تنوع المفاجآت: هو تسارع الأحداث.

وتظهر تلك الخصيصة جليًّا في قصّة مريم، حيث كانت في خلوتها هادئة مطمئنة إلى وحدتها، ولكنها إذ بها تفاجأ مفاجأة عنيفة صاخبة، تنقل تصوّرتها ومشاعرها نقلة بعيدة متوترة؛ وذلك حينما تمثّل لها جبريل بشراً سويًّا.

ففي القصّة تنوّعت العواطف، والانفعالات، وكذلك توالت الأحداث، والمفاجآت، وذلك كله في لوحة فنيّة بديعة.

ومن خصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة:

أنها تذكر في بدايتها ملخصًا لها، ثم يتبع هذا الملخص التفاصيل:

ومثال ذلك: قصّة أهل الكهف فقد بُدأ بذكر ملخص لها، وذلك في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ (الكهف: ٩) ثم شرع في ذكر تفاصيلها.

وكما في سورة يوسف: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ (يوسف: ٧)، ثم بدأت السورة تسرد تفاصيل القصّة.

ومن الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة:

أنها تذكر مغزى القصّة وهدفها، ثم تسردها بعد ذلك مفصّلة:

مثال ذلك: قصّة موسى في سورة القَصص: حيث ذُكر مغزها وهدفها في أوّل السورة، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ (القصص: ٥)، ثم شرع في بيان تفاصيلها.

ونختم حديثنا عن الخصائص الفنيّة للقصّة القرآنيّة بما قاله محمود تيمور:

" لا غروَ أن يروع القرآن أمّة العرب بنحو خمسين قصّة، وأن تسمى باسم (القَصص) بعض سوره، وكذلك ترد كلمة القصّة، وما ينصرف منها، مثل: نقصّ، القصص، اقصص، وما يتصل بها في خمسة عشر موضعاً."

وأَكّدَ تيمور: على شغف العرب في مستهل الدعوة المحمّديّة بالقصص.

ومثّل على ذلك بطلب قريش العربية من محمّد – صلى الله عليه وسلم – أن يخبرهم عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، فقد كانت لهم عجب؛ لذا جاء القَصص

القرآني استجابة لولع العرب وشغفهم بهذا الفنّ؛ لذا كان له أبلغ الأثر في إقرار العقيدة، وإشاعة الإيمان. [1]

الطريقة العَرْضيّة في عرض القَصص القرآني:

من طرائق عرض القَصص القرآني الطريقة العَرْضيّة، والتي من خلالها يعرض القرآن أخلاق بعض الجماعات، أو أخلاق بيئة من البيئات، وأكثر ما يظهر هذا اللون في قصّة موسى – عليه السلام.

فقد صورت قصّة موسى أخلاق اليهود: من نقص للعهود، والتلكؤ، والعناد، وحبّ الدنيا، وغير ذلك.

كما نجد لفتات لأخلاق المصريين في العهد الفرعوني.

الحوار في القَصص القرآني:

استخدم القَصص القرآني الحوار، ويعدُّ الحوار في القصص القرآني عنصراً مهماً يتدرج بالقصّة من الإشارة إلى التفصيل، ومن العامّ إلى الخاصّ، والهدف الرئيسي من الحوار هو: إثارة الوجدان، وإيقاظ الفكر، وإعمال العقل.

والحوار في القصّة القرآنيّة لم يسلك مسلك التبسيط فحسب، بل تعدى إلى رسم معالم الشخصيات، وعبّر عن نفسيات أصحابها، وآرائهم تعبيراً أميناً، لا مباهاة، ولا افتعال، وبأسلوب معجز فريد.

وحوار القصص القرآني لا ينقل كل ما دار بين القوم وأنبيائهم من صراع، وإنما يختار اللقطات الموحيّة، والعناصر الحيّة، والتي تكون أكثر دلالة ومغزى؛ لتفي بالحاجة وتحقّق الغرض والمراد.

وتأمّل قصّة نوح: فقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلّا خمسين، فكم دار من حوار؟!

---

[1] – في هذا المثال من تيمور فيه نظر؛ لأنَّ العرب سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذلك بناء على توجيه من اليهود، لمّا سأل العربُ اليهودَ عن أمر محمّد – صلى الله عليه وسلم، وإن كان لا يمنع هذا أن العرب كانوا مولعين بالقصص عامّة.

بالتأكيد دارت حوارات كثيرة جدًّا، ولكن القصّة القرآنيّة لم تنقل لنا إلّا عينات منها، وهي خلاصة حواراته، وما يخدم هدف القصّة القرآنيّة، وينسجم مع بيئتها.

أشكال الحوار في القَصص القرآني:

للحوار أشكال في القَصص القرآني، ومنها:

١.الحوار بين الله تعالى وملائكته، نحو: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص: ٧١- ٧٢)

٢.الحوار بين الله تعالى وإبليس، نحو: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص: ٧٥- ٨٣)

٣.الحوار بين الأنبياء وأقوامهم، وهذا كثير نحو حوار إبراهيم مع قومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الشعراء: ٧٠- ٧٧)

وحوار موسى مع فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠

مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [1] (الشعراء: ١٨- ٢٢)

٤.الحوار بين الأشراف بعضهم وبعض، مثل: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (المؤمنون: ٢٤)

٥.الحوار بين الإنسان والملائكة، نحو: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ (الذاريات: ٢٤- ٢٨)

٦.الحوار بين الإنسان والحيوان، نحو: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

[1] - تكرار كلمة (قال) مفصولة غير معطوفة في هذا الموضع، وفي نحوه، حيث جاءت على تقدير السؤال والجواب، كعادة العرب في الكلام، فلما كان السامع منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٤٩)، وقع في نفسه أن يقول: فما قال له موسى؟ أتى قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠). (عبد القاهر الجرجاني، بتصرف: ٢٠٠١)

ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ (النمل: ٢٠- ٢٨)

o o o o

قصّة ابني آدم

البداية:

قصَّ الله علينا في قرآنه الكريم قصّة تظهر جليًّا الصراع الدفين بين الخير والشرّ، قصَّ علينا قصّة تحمل أحداثًا مروعة، ونتائج مفجعة، قصّ علينا قصّة المواجهة الأولى بين الضدان (الخير والشرّ)، ولن تكون الأخيرة في هذا الصراع الأبدي السرمدي إلى أنَّ يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، التقيا كفاحًا بدون تخفٍ أو إنذار.

إنها قصّة ابني آدم، أو قل: قصّة الحسد، والظلم، والبغي.

وتبدأ هذه القصّة البديعة بمطلع فخم بهي: حيث قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة: ٢٧) أي: يا محمّد، اقصص على اليهود البغاة الحسدة خبر ابني آدم بالحقّ والصدق.

إذ قرّبا قربانًا:

بدأت القصّة بخبر مشوق ألا هو خبر تقديم ابني آدم قربانين قال تعالى: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ (المائدة: ٢٧)

ولِمَ قدما هذين القربانين؟

ذكر المفسرون أنّ سبب تقريب هذين القربانين، هو: " أنه كان لا يولد لآدم مولود إلّا ومعه جارية، فكان يُزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويُزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صحاب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحقّ أن أتزوج بها، وأنهما قربا قربانًا إلى الله – عزّ وجلّ – أيهما أحقّ بالجارية، فقرب هابيل جذعة سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها، وأكلها، فنزلت النار، فأكلت قربان

هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هابيل: **إنما يتقبل الله من المتقين.**" (ابن كثير: ١٩٨٧)

والذي يظهر إنّ هذه الرواية من الإسرائيليّات، والتي هي في أحسن أحوالها أنها لا تصدق ولا تكذب؛ لذا تجنيب تفسير كلام الله بها أصوب، لاسيما أن قصّة ابني آدم واضحة جليّة، ولا تحتاج إلى مثل هذه الروايات الواهية التي لا تضيف لها أي فائدة حقيقيّة؛ لذا الصواب أن يقال: قدم ابني آدم قربانين، والله أعلم ما الذي قدماه؟! ولِمَ قدماه؟!

قَبول ورفض:

بعدما قرّبا القربانين ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ﴾ (المائدة: ٢٧) ممّا آثار ذلك حفيظة الأخ المردود قربانه، فثارت نفسه، وغلى دم قلبه طلبًا للانتقام، وحبًّا في التشفي والانتصار، فَعُمِيَ بصرُه، وطُمّ سمعُه، ونطق لسانُه بطغيان: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾! (المائدة: ٢٧)

نُصْحٌ وشَفَقةٌ:

ما أن سمع هذا الأخُ الوديع هذه المقولةَ الغليظة القاسية إلّا أن قابلها بوداعةٍ ونصح وشفقة قائلًا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢) [١]

ويكمل الأخ الوديع الناصح موعظته لأخيه، لعلَّه يقلع عمّا عزم عليه، وقصده، فقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (المائدة: ٢٨)

ولكن – ويا للأسف – لم تجدِ هذه النصيحة الصادقة المشفقة نفعًا مع أخيه الثائر، عندها لم يجد الأخ المقتول بُدًّا من تغليظ النصح والإرشاد، لعلَّ أخاه يقلع عمّا

---

[١] – قال الرازي: "عندما قال قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ففي الكلام حذف، والتقدير كأن هابيل قال: لِمَ تقتلني؟ قال: لأنّ قربانك صار مقبولًا، فقال هابيل: ما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢) (الفخر الرازي)

عزم عليه، ونواه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ (المائدة: ٢٩) أي: أريد أن تكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعًا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وحذره من مغبة قصده ومبتغاه، فقال: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩) قال ابن عباس: " خوّفه بالنار فلم ينته، ولم ينزجر." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وقد يقال: كيف أراد الأخ المقتول أن يأثم أخوه، وأن يدخل النار، مع أن إرادة الشخص السوء والوقوع في المعصية لغيره حرام؟!

الجواب: قال أبو الحسن بن كيسان: " إنما وقعت الإرادة بعدما بسط يده إليه بالقتل، والمعنى لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني لأمتنعن عن ذلك مريدًا للثواب."

الفاجِعةُ المُدوية:

لم يكترثِ الأخ الظالم بموعظة أخيه الصادقة، بل ترجم حسده إلى فعل، فجاءت الفاجعة!

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ (المائدة: ٣٠)

قال القاسمي: " رخّصت وسهّلت له نفسُه، والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه، أي الذي حقّه أن يحفظه من كل مَنْ قصده بالسوء، قد قتله!" (محمود المصري: ٢٠٠١)

يقول عبد الحميد كشك: " القاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحبّ الانْتقام والقتل، يرى في الإقدام على هذا العمل جرمًا وفظاعة، فيتردّد، ولا يزال كذلك حتى تشجعه نفسه الأمارة بالسوء، فطوّعت له نفسه قتل أخيه وهدم ما بناه الله وأتقنه فأصبح من الخاسرين." (عبد الحميد كشك)

العاقبةُ الوخيمة:

بعد هذا الطغيان والظلم تأتي العاقبة: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٣٠) أي: خسر الدارين، وأسخط الوالدين، وباء بالعذابين في الدنيا والآخرة.

يقول الرازي: " خسر دنياه وآخرته، أمّا الدنيا فهو أنه أسخط والديه، وبقي مذمومًا إلى يوم القيامة، وأمّا الآخرة فهو العقاب العظيم." (الفخر الرازي)

قال صلى الله عليه وسلم: " **لا تُقتلُ نفسٌ ظلمًا إلّا كان على ابنِ آدمَ الأوّلِ كِفْلٌ من دمِها؛ لأنّه كان أوّلُ من سنَّ القتلَ.**" (رواه مسلم: ٣٢٤٩)

حَسْرَةٌ ونَدَمٌ:

بعدما هدأت ثورةُ نفس ابن آدم القاتل، فإذا بالجريمة ماثلة أمام عينه في صورة سوءة أخيه (جسده)، فوقف عاجزًا أمامها وهو لا يدري ماذا يفعل بها؟! فازداد همًّا فوق همّ! وغمًّا فوق غمّ! وحسرة فوق حسرة!

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة: ٣١)

يقول محمّد رشيد رضا: " بعث الله غرابًا إلى المكان الذي هو فيه، فبحث في الأرض أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أنَّ الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أنّ الغراب أطال البحث في الأرض؛ لأنّه قال يبحث، ولم يقل بحث، والمضارع يفيد الاستمرار، فلمّا طال البحث أحدث حفرة في الأرض، فلمّا رأى القاتل الحفرة – وهو متحيرٌ في أمر مواراة سوءة أخيه – زالت الحيرة، واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض، هذا هو المتبادر من الآية، وقال أبو مسلم: إنَّ من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب، فدفن شيئًا، فتعلّم منه ذلك، وهذا قريب أيضًا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إنَّ الله بعث غرابين لا واحد، وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها! وما جاء هذا إلّا من الروايات التي مصدرها الإسرائيليّات." (محمود المصري: ٢٠٠١)

على كل حال: عندما تبيّن للأخ القاتل كيف يواري سوءة أخيه المقتول من الغراب، صرخ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ (المائدة: ٣١) وهي كلمة تحسر ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)

قال الحسن البصري: " علاه الله بندامة بعد خسران." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وأُسدلَ الستار على هذه القصّة المفجعة بقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة: ٣٢)

قال قتادة: "عظم واللهِ أجرها، وعظم وزها! فأحيها يا ابن آدم، بمالك، وأحياها بعفوك إن استطعت، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

ونختم تلكم القصّة البديعة الشيقة بهذه الباقة المزهرة من الفوائد والفرائد التالية!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

١.في القصّة بيان للناس بأن الحسد، والظلم، والبغي عاقبتهم وخيمة؛ لذا حذر شرعنا الحنيف من هذه الصفات، لأنها صفات ذميمة تؤذي صاحبها، وتجره إلى معصية الله تعالى، وتدفعه إلى السخط على إقدار الله وقضائه، وقد قيل: أوّل ذنب عُصي الله به في الأرض والسماء هو الحسد.

" والحسد هو تمنّي زوال النعمة من المنعم عليه." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقال الحازمي: " والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر، فهو يؤدي إلى التنافس إذا كان من نوع الغبطة [١]، ولم يتجاوز حدوده، قال ابن القيم: وللحسد حدٌّ هو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا، يتمنّى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همّة وصغر نفس." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

---

١ – **الغبطة:** " هي رغبة في النفس أن يكون لها مثل ما لغيرها، وهي ممدوحة أيضًا؛ لأنَّها غالبًا تنتهي بالمنافسة إذا صحبتها العزيمة وقوّة العمل." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقال أيضًا: " فهو إن تجاوز حدود دائرته أصبح حسدًا، وإذا نقص أصبح بلادة وبرودة وجبنًا، وإذا انحصر في محيط دائرته أصبح غبطة مقبولة بناءة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وعليه فالحسد أقسام ثلاثة:

- **القسم الأوّل: حسد مرفوض مردود:** وهو أن يكره الإنسان رؤية النعمة على أخيه المسلم، فيتمنّى أن تزول عنه سواء انتقلت إليه أم لم تنتقل، وقد يسعى إلى إزالتها بقول أو وفعل.

- **القسم الثاني: حسد مسموح مباح:** " وهو رؤية الإنسان النعمة على أخيه، ولا يتمنّى زوالها، ولكن يتمنّى أن يكون له مثلها، وهذا يسمى حسد الغبطة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

- **القسم الثالث: حسد مطلوب محبوب:** " وهو الحسد الذي يدفع الإنسان للتنافس في طاعة الله تعالى، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " **لا تَحاسُدَ إلّا في اثنتينِ: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليل وآناءَ النهار، فهو يقولُ: لو أُوتيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ هذا لفعلتُ كما يفعلُ، ورجلٌ آتاه الله مالاً يُنفقُهُ في حقِّه فيقول لو أُوتيتُ مثل ما أوتي، لفعلت كما يفعل.**" (رواه البخاري: ٧٢٣٢)

وسماه حسدًا من باب الاستعارة." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وقد كان حسد أحد ابني آدم لأخيه من القسم الأوّل.

٢. التقوى سبب قبول الأعمال؛ لذا كان سبب عدم قبول قربان الأخ القاتل يرجع إلى عدم تقواه.

٣. تؤكد القصّة على أهمية الروابط الإيمانية بين المسلم وأخيه المسلم، ويعدّ حبّ المسلم لأخيه المسلم ما يحبّه لنفسه من أوثق عراها.

٤.يتوجب على المسلم أن يدافع عن نفسه إلّا إذا خشي الفتنة.

٥.امتناع الأخ المقتول من أن يقابل أخاه القاتل بمثل صنيعه الفاسد، ورفضه لمقابلة السيئة بالسيئة كان بسبب خوفه من الله تعالى.

٦.القتل من أكبر الذنوب بعد الكفر، وموجب لدخول النار.

٧.وَعْظُ الأخ المقتول لأخيه القاتل وتخويفه بالنار كان من باب الشفقة عليه، وهكذا يجب أن يكون المسلم مع إخوانه.

o o o o

قصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه

البداية:

المتأمّل في حياة خليل الله إبراهيم – عليه السلام – يجدها كلها سلسلة متصلة الحلقات في النضال والثورة على عقائد قومه الوثنيّة والشركيّة.

وتوّج إبراهيم ذلك النضال ضدّ الشرك وأهله بمحاجته الطاغية النمرود.

من النمرود هذا؟

النمرود – ويقال: النمروذ بالذال – هو ملك الكنعانيين [1]، وعلى ما يبدو كان هذا الملك عظيم المُلك، والسطوة، والقوّة، والكفر.

لِمَ وقعت هذه المناظرة؟

يذكر الطبري: " أن إبراهيم خرج مع الناس لجلب الميرة (أي: المؤونة) من النمرود، فكان كلما وصل إليه رجل سأله من ربّك؟ فيقول: أنتَ، فلمّا وصل إبراهيم – عليه السلام – سأله النمرود من ربّك؟ فقال: ربّي الذي يحيي ويميت، وجرت بينهما المناظرة المعروفة." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

بينما ذكر ابن كثير، وهو الصواب: " أن إبراهيم قد دعا النمرود للإيمان بالله – تعالى – فأخذته العزّة بالإثم، وأصرَّ على ادّعاء الربوبيّة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

الحاصل: دعا إبراهيم – عليه السلام – النمرود إلى الله تعالى، ولكنه تجبّر، وحاجّ إبراهيم في ربّه!

متى وقعت هذه المناظرة؟

ذُكر: أن هذه المناظرة وقعت بين إبراهيم والنمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن قد اجتمع به من قبل، فكانت بينهما هذه المناظرة.

---

[1] - **وهذا الاسم (النمرود أو النمروذ)** لم يصرّح القرآن، ولا السنّة الصحيحة به، وإنما ذكره المفسرون عند تفسيرهم لقصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، حيث قالوا: إن اسمه النمرود، والله أعلم باسمه.

على كل حال: تحديد اسم الذي حاجّ إبراهيم في ربّه بـ (النمرود)، أو غيره ليس بالأمر خطير الشأن.

وذُكر: أنه لمّا كسر إبراهيم الأصنام سجنه النمرود، ثم أخرجه؛ ليحرقه بالنار.

والذي يظهر أن هذه المناظرة قد حدثت قبل إلقاء إبراهيم في النار، ويحتمل أنها كانت سببًا محفزًا لإلقاء إبراهيم في النار مع ما ألحقه من التفتيت والهوان للأصنام، والله أعلم.

مجادلة النمرود لإبراهيم في ربّه:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: ألم يصلك، يا محمّد نبأ الذي تجرأ، وجادل إبراهيم فيما لا يقبل التشكيك، وهي وحدانيّة ربوبيّته، ومن غريب أمر النمرود هذا أن الذي حمله على ذلك التشكيك المُلك الذي قد آتاه الله تعالى، وكان من المفترض أن يخضع للذي منحه هذا المُلك العظيم، لا أن يشكك في وحدانيته!

ربي الذي يحيي ويميت:

بدأت أحداث هذه المناظرة عندما دعا إبراهيمُ النمرودَ إلى الإيمان بالله تعالى، عندها سأله النمرود: من الله؟!

ولك أن تتخيّل حجم الخوف والهلع اللذين قد يصيبان أي إنسان مكان إبراهيم! خاصّة إن عرفت أن هذا الطاغية كان من الأربعة الذين ملكوا الدنيا. [1]

لكن إبراهيم أجابه إجابة من أوتي الإيمان، والثقة بوعد الله، فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " (الله ربّي) هو المنفرد بأنواع التصرف، وخصَّ منه الإحياء والإماتة؛ لكونهما أعظم أنواع التدابير." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

يا لها من جرأة في الصدع بالحقّ أمام هذا الطاغية! وأي طاغية، طاغية ترتعد فرائص الجبابرة عند سماع اسمه، فضلاً عن مجادلته، ومعارضته، ومناظرته!

---

[1] – فقد ذُكر – والله أعلم بصحة ذلك – أن الذين ملكوا الدنيا أربعة: مؤمنانِ وكافران، فالمؤمنان: سُليمان – عليه السلام، وذو القرنين، والكافران: النمرود وبختنصر.

وإن تبحث عن سبب هذه الجرأة من إبراهيم تجدها في قوّة إيمانه وحرارته التي أذابت كل خوف، ونزعت من قلب إبراهيم كل فزع، وجعلت قلبه قلباً مطمئناً بوعد الله تعالى.

غضب النمرود:

ما أن سمع هذا الطاغية جرأة إبراهيم هذه – التي لم يعهدها من قبل – إلّا أن امتلكه الغضب، فقال بحنق وعتوّ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [1] (البقرة: ٢٥٨) وفسر النمرود ذلك بأن " أتى برجلين قد تحتمّ قتلهما، فإذا به يأمر بقتل أحدهما، ويعفو عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا، وأمات الآخر." (حافظ الحكمي: ١٩٩٩)

تحدي إبراهيم للنمرود:

لم يشغل إبراهيم نفسه بالكشف عن مغالطة هذا الملك الجاهل وتلبيسه، ولكنه انتقل من فوره وساعته إلى حجّة أخرى لا يستطيع لها دفعاً، ولا يملك معها إلّا التسليم والإذعان، فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " إذا كنتَ تدّعي الألوهيّة، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربّ العالمين – جل جلاله، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته، فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرّة واحدة." (محمّد الصابوني)

وقد يقال: لِمَ لَمْ يقل النمرود لإبراهيم: بل سل أنتَ ربّك حتى يأتي بها من المغرب؟

ذُكر: لم يقل النمرود ذلك؛ لأنه خاف أنه لو سأل إبراهيمَ ذلك، فإن إبراهيم سوف يدعو ربَّه أن يأتي بالشمس من المغرب؛ وعندها سيجيبه ربُّه حتمًا، فتكون زيادة في فضيحته وانقطاعه.

---

[1] – **تأمّل:** " لم يقل (النمرود): أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرّف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله، ويصنع صنعه." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وأقول: كان النمرود مع كفره وعتوه أفضل حالًا من كفّار هذه الأيام كالشيوعية ونحوهم، حيث أثبت أفعال الله كالإحياء والإماتة، لا كما ينفي كفّار اليوم مثل هذه الأفعال لله.

ولكن الصواب: الله – تعالى – قد صرفه عن تلك المعارضة إظهارًا للحجّة عليه.

فبهت الذي كفر:

كانت نتيجة هذه المناظرة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: أخرست هذا الفاجر تلك الحُجّة الساطعة القاطعة التي ألقمته الحجر.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " لا يلهمهم الحُجّة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين." (محمّد الصابوني)

نهاية النمرود:

ذُكر: أن بعوضة دخلت في منخره، وبقيت تعذبه سنوات طوال، حتى أهلكه الله.

والذي يظهر أن هذه الرواية من الإسرائيليّات؛ لذا صون كلام الله عنها أسلم.

أمّا نهاية النمرود لا نشكُّ في أنها كانت نهاية مفجعة مثل كل من ادّعى الربوبيّة، أمثال: فرعون، والمسيح الدجّال، وغيرهما، والله أعلم بها.

ونختم هذه القصّة البديعة بتلك الفوائد الفريدة!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– الكفر بالله – عز وجل، والإصرار على عصيان أوامره سبب هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة.

– الموت نهاية كل مؤمن، وكافر، وغني، وفقير، وسيجتمعون أمام الله – عز وجل؛ ليحاسبوا على القليل والقطمير.

– تحمل القصّة عبرة وموعظة من نهاية الشرك الوخيمة، كما تشير إلى عظمة خلق المولى – سبحانه وتعالى، وأن أمر الكون كله بيده.

– من فرائد الفوائد من هذه المناظرة أن إبراهيم – عليه السلام – استخدم أسلوب القوة والقهر بقطع الحجّة عندما قلّ حياء هذا المجادل، وبعدما استنفد كل الخيارات لدعوته بالتي هي أحسن، فصار لا بدّ من طرد شبهته بأنه إله باستجلاب حجّة لا تدع مجالًا لسوء الفهم.

ومن الفوائد المفيدة من القصّة – أيضا – تعليم كيفية ترتيب الحجج الإقناعية، حيث ينبغي أن يواجه الخصم بأقوى الحجج في النهاية، ومن الجدير بالذكر أنه ليس هناك قاعدة، أو قانون عام؛ لترتيب الحجج في عملية الإقناع، فقد ذهبت بعض الدراسات إلى أن الحجج التي تُقدم في البداية يكون تأثيرها أقوى من الحجج التي تقدم في النهاية، بينما أظهرت دراسات أخرى نتائج عكس ذلك، ويرى بعض الباحثين أن تأجيل الحجج الأقوى حتى النهاية أفضل من تقديمها في البداية، ولنا أن نلاحظ ترتيب الحجج في القرآن الكريم، كما في قصّة إبراهيم – عليه السلام – مع النمرود، حيث جاءت الحجّة القوية في نهاية الأمر، فبدأ بالأسهل فالأسهل على الإفهام قبل إيقاع الإقحام بالأخصام.

– ومن الدروس التي نستقيها من هذه القصة أن هناك أخذ، وردّ، واستماع لما يقول الآخر، وتحقّق ممّا يرمي إليه كل طرف منهم، وفيها أيضا الاستماع حتى يقضي الطرف الآخر ممّا يريد إيصاله في أخصر عبارة وأدلّ معنى.

– كما تعلمنا القصّة أنه ينبغي للداعية أن يكون واضح الكلام، صحيح الفكر، وتأمل لم يكن هناك مجاملة، أو تشدقًا، أو تقعيرًا للكلام من قبل إبراهيم – عليه السلام، وأيضا لم يُخرج إبراهيم عن طوره واتزانه هذا التصرف الأهوج من قبل النمرود، بل نقض حجّته بأيسر سبيل وأدلّ دليل على كذب دعوى النمرود.

– ينبغي أن يُعلم أن المناظرة ليست مطلبًا ابتداء، بل هي ممّا قد يُضطرّ لها إذا استشرى فساد المناظر، أو عمّت به البلوى، فحينها يكون مطلبًا لبيان الحقّ.

– وأمرٌ أخير مهم ألا هو أنه ينبغي على كل مناظر أن يُحسن النية، وأن يكون رضى الله هو مطلوبه، وأن يكون الحقّ نصب عينيه، أنى وجده يأخذ به، ويعضّ عليه بالنواجذ.

o o o o

قصّة الذبيح

البداية:

عندما شبَّ إبراهيم – عليه السلام – عن الطوق، وصار في مبلغ الرجال، تزوج بامرأة طيبة الأصل اسمها سارة [1]، عاش إبراهيم – عليه السلام – معها حياة أسريّة هادئة هانئة، ولم يكدر صفو هذه الحياة الأسرية الهادئة سوى تشوف إبراهيم لذرّيّة صالحة تنهض بهذا الدين من بعده، حيث كانت سارة زوج إبراهيم عاقراً، فوهبته خادمتها هاجر؛ لتكون له زوج؛ لعلَّ الله تعالى يرزقه منها بولد.

وبالفعل تزوج إبراهيم هاجر، وأنعم الله عليه منها بغلام حليم سمّاه إسماعيل، فكانت فرحته به لا توصف.

هجرة إبراهيم بزوجه هاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز):

مكث إبراهيم قرير العين مع أسرته الجديدة في الشام ما شاء الله أن يمكث، حتى جاءه الأمر الإلهي بأن يخرج بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز)، وكانت بلاد فاران (الحجاز) في ذلك الزمن السحيق مكاناً موحشاً قفراً، حيث لا يوجد به ساكن، ولا مسكن، ولا زرع، ولا نبات.

ورغم ما في هذا الأمر من صعوبة ومشقة على نفس إبراهيم إلّا أنه انقاد لأمر ربّه، ولم ينفذه وحسب، بل نفذه وهو راضي النفس، مرتاح الضمير، رابط الجأش، فذهب إبراهيم بزَوْجه الثانية هاجر وابنه إسماعيل إلى حيث أمره الله إلى أرض فاران (الحجاز)، وما أن وطئت أقدامهما أرض هذا المكان، حتى همّ إبراهيم بالرحيل،

---

[1] – **تنويه:** ذهب بعض أهل العلم إلى نبوّة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم، ولكن الصحيح، والذي عليه الجمهور هنّ صدّيقات – رضي الله عنهن وأرضاهن.

وتركهما بمفردهما، وبشفقة الأب، ورحمة الزوج زودهما بسقاء فيه ماء، وجراب فيه تمر، وكان هذا كل ما في وسع إبراهيم فعله لهما!!

ولمّا ولّى إبراهيم ظهره راحلاً تعلقت هاجر بثيابه قائلة: يا إبراهيم، أين تذهب، وتدعنا ها هنا؟! وليس معنا ما يكفينا من طعام أو شراب! وليس ها هنا من أحد!!

لم يجبها، ومضى في طريقه!!

فلمّا ألحت عليه – وهو صامت لا يجيبها – قالت له: آلله أمرك بهذا؟

هاجر الزوجة المؤمنة توقعت بفراستها أن هذا العمل الخارج عن دائرة الالتئام الأسري ما يكون إلّا بأمر من الله؛ لذا سألت زَوْجها هذا السؤال؟!

وكما توقعت هاجر، أجاب إبراهيم: نعم!

وتأمّل – يا رعاك الله: ترك إبراهيم فلذة كبده إسماعيل، وأنيس روحه هاجر في صحراء الحجاز القاحلة بمفردهما استجابة لله!!

لله درُّك يا إبراهيم نبيًّا مطيعًا!!

ولمّا تولّى عنهما، وقف إبراهيم بحيث لا تراه زَوْجه هاجر، رافعًا أيدي الضراعة قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧)

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم، فحفظ أسرته، وأنعم عليهما بأن جعل هذا المكان القفر الموحش، مثابة للناس وأمناً، يأتيه الناس من كل فجّ عميق.

هاجر وإسماعيل في أرض الحجاز:

استسلمت هاجر لأمر ربّها، ومكثت مترقبة خائفة في هذا المكان الموحش القفر الذي لا يوجد فيه أنيس، أو جليس، وكانت كلما أحسّت بالعطش أو الجوع، أخذت تشرب من الماء، وتأكل من التمر اللذينِ تركهما لها زَوْجها إبراهيم، حتى نفدا،

فعطشت عطشاً شديداً، وجاعت جوعاً أكيداً، أمّا رضيعها فلم يكن أحسن حالاً منها، حيث أخذ الجوع والعطش يعتصره عصرًا شديداً.

كان منظر رضيعها وهو يتلّوى عطشًا وجوعًا آخذًا بكل لبّ هاجر، حتى أنساها ما بها من جهد، وتعب، وجوع، وعطش، ودفعها تهرول يميناً ويساراً، لعلَّها ترى إنساناً، أو تجد مغيثاً، وهي الجوعى، والعطشى، والمجهدة!

فصعدت أقرب جبل إليها بالرغم من شدّة الإعياء الذي ألّم بها، صعدت الجبل المعروف اليوم بجبل الصفا، صعدته وعينها مشتتة بين رضيعها الموجود في بطن الوادي، وبين قمّة الجبل، حتى وصلت أعلى الجبل بعد جهد جهيد، وتعب أكيد، فالتفتت ذات اليمين وذات اليسار لعلَّها ترى أحدًا، لكنها لم تر من أحد، فنزلت من أعلى الصفا وهي مسرعة وجلة على رضيعها القابع في بطن الوادي أن يمسّه سوء، حتى وصلت إلى بطن الوادي حيث يوجد رضيعها، فما أن وصلت إلى بطن الوادي حتى رأت جبلاً آخر، وهو المعروف اليوم بجبل المروة، فصعدت عليه، غير مهتمة بتعبها، وجوعها، وعطشها، وما أن وصلت إلى أعلى الجبل حتى جالت بنظرها يمنة ويسرة، ولكنها لم تعثر على شيء أيضًا، ولشدّة خوفها على رضيعها كرّرت ذلك العمل الشاقّ سبع مرّات، لعلَّها تجد مغيثاً.

قال صلى الله عليه وسلم:" **فذلك سعيُ الناسُ بينهما.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

نعم اللّه على هاجر وإسماعيل في أرض الحجاز:

ودائماً الفرج يأتي عند اشتداد الكرب، واليسر يكون عند احتدام العسر، فلمّا أتمّت هاجر سبع مرّات في الصعود والنزول، إذ بها تسمع صوتاً يقول: قد جاءك الغوث، فإذا بملك (وهو جبريل – عليه السلام) عند ابنها **فقال لها جبريلُ: " من أنتِ؟ قالت: أنا هاجرُ أمّ ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)، فبحث في الأرض بعقبه أو جناحه، فظهر الماء.

رأت هاجر الجوعى والعطشى الماء، رأت نجاتها ونجاة رضيعها، فلا يمكن وصف فرحتها، فحمدت ربّها، التي أحسنت فيه ظنّها.

ومن شدّة فرحها وحرصها على هذا الماء، أخذت تحوطه لئلا يسيح، وتغرف منه في سقائها، وهو يفور ويفور، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " **رحمَ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لولا أنها عَجِلَتْ؛ لكانت زَمْزَمُ عيْناً مَعيناً.**" (رواه: البخاري: (٣٣٦٤)، وأحمد: (٣٣٩٠) واللفظ له) أي: لو تركت هاجر زمزم لم تحوطها ولم تغرف منها؛ لصارت زمزم عيناً جارية على وجه الأرض.

قال ابن عباس: " **فشَرِبَتْ وأرضعتْ ولدَها، فقال جبريل: لا تخافوا الضيعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ الله يبني هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يضيعُ أهلَهُ.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

وبالفعل لم يضيع الله أهله خليله، فبعد أن أنبع الله لهما زمزم مرّت قبيلة من قبائل العرب، يقال لهم: جُرهم، على هاجر، فعرضوا عليها أن ينزلوا عندها، فوافقت على أن يكون لابنها الماء، وأقاموا عندها على ذلك، فتمت عليها النعمة، وتحققت أمنية زَوْجها، واستجيب دعاؤه.

إبراهيم يؤمر بذبح ابنه:

أقامت هاجر وابنها إسماعيل في أرض الحجاز ما شاء الله أن يقيما، ولمّا كبر إسماعيل وشبَّ عن الطوق، رأى إبراهيم في المنام ما يوجب ذبح ولده إسماعيل، أو أنه رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل فعلًا، ورؤيا الأنبياء حقٌّ، وهي من باب الوحي.

ولعلَّ السرَّ في كون الأمر الإلهي منامًا لا يقظة حتى تكون مبادرة إبراهيم إلى الامتثال أدلّ على كمال الانقياد والإخلاص.

على كل حال استيقظ إبراهيم من نومه فزعًا على هذا الابتلاء العظيم!!

ولله درك يا إبراهيم! بعدما أُبتليت بالطلب أن تهاجر بزَوْجتك وابنك إسماعيل إلى صحراء مكة، حيث المكان القفر، تبتلى الآن بأنْ تذبح بكرك إسماعيل.

ومتى أُبتلي إبراهيم بذلك؟ ابتلي بذلك بعدما بلغ إسماعيل سنًّا يكون – في الغالب – قد تمكن حبّ إسماعيل من قلب إبراهيم، فعندما يكبر الولد، ويصير في مصالح أبيه يتعلق الأب بابنه أكثر وأكثر، وهذا واقع ومشاهد!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: فلما شبَّ، وصار في مصالحه، ومصالح أبيه أُمر بأنْ يذبحه.

يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى:

قام إبراهيم من فوره، وذهب يقصّ رؤياه على ابنه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

وهذا من حكمة إبراهيم، ورحمته أنه عرض هذا الأمر على ابنه إسماعيل؛ ليختبر صبره؛ وليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يُؤخذ قسراً، ويُذْبح قهراً، حيث قال له: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات: ١٠٢)؟!

هل كانت مشاورة إبراهيم لابنه إسماعيل ليرجع لرأيه؟

الجواب: لا، قال الأنصاري: " لم يشاوره ليرجع إلى رأيه؛ لأنّ أمر الله حَتمٌ، لا يختلف الأنبياء عنده، بل ليختبر صبره، وليوطّن نفسه للذبح، ولتكن (سُنّة) في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم – عليه السلام – الملائكة في أكل الشجرة، لمّا صدر منه ما صدر." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

ردّة فعل إسماعيل على رؤيا أبيه إبراهيم:

ما أن سمع هذا الغلام الحليم سرّ والده الخليل إبراهيم هذا الكلام، إلّا أبدى الموافقة والتسليم، بل حثَّ أباه على تنفيذ ما أمره به العزيز الحكيم، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) أي: امض لمّا أمرك الله به من ذبحي، فلن تجدني إلّا صابرًا محتسبًا.

يا الله!! يا له من جواب!!

قال الصابوني: " وهذا جواب من أوتي الحلم، والصبر، وامتثال الأمر، والرضى بقضاء الله." (محمّد الصابوني)

وتأمّل – وفقك الله للحق: ردّ إسماعيل – عليه السلام – السابق ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) **أليس فيه سمو الإذعان والصبر؟!**

بلى، فيه قمّة الإذعان والصبر، حيث بدأ بالامتثال للأمر الإلهي أوّلًا، ثم قدّم مشيئة الله تعالى على الصبر ثانيًا، وفي ذلك التقديم استعانة بالله أن يجعله من الصابرين على هذا البلاء المبين!! الذي يتميّز به المخلص من المنافق!!

ثم تأمّل ثانية – أدامك الله على الحقّ ثابتًا: متى قال إسماعيل هذا الكلام؟! قاله وهو صغير؛ لذا من الخطأ أنْ نعتقد: أنَّ الصغار لا يفهمون مثل هذه المعاني!!

استمرار الابتلاء واشتداده:

نعود – والعود أحمد – إلى ابتلاء إبراهيم وإسماعيل، حيث لم يتوقف البلاء عند هذا الحدّ، على رغم ما أبداه إبراهيم وإسماعيل من خضوع وتسليم، بل اِسْتَمَرَّ الابتلاء، وأخذ يشتدُّ أكثر وأكثر، فأضجع إبراهيم ولده للذبح، وشحذ سكينه، وعزم على ذبحه عزماً أكيداً: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ (الصافات:١٠٣) أي: فلمّا استسلما – الأب والابن – لأمر الله، وصرع إبراهيم ابنه على وجهه ليذبحه.

ويذكر: أن إبراهيم أراد أن يذبح إسماعيل من قفاه؛ لئلا يشاهد وجهه في حال ذبحه، والله أعلم بصحة ذلك!!

المنن في خضم المحن:

على كل حال أضجع إبراهيم ابنه إسماعيل للذبح، فجاء الفرج، حيث نادى البر الرحيم: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٥) أي: نجحت يا إبراهيم في الاختبار. [١]

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [٢](الصافات: ١٠٧)!

وليس ذلك وحسب، بل رفع الله قدر إبراهيم وإسماعيل، وجعل ذبح الأنعام سنّة يُتقرب بها إلى الله إلى يوم الدين، ينال إبراهيم ثواب من يفعلها من الآدميين.

وأيضًا مُنح إبراهيم وسامًا إلهيًّا رفيعاً: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٨) أي: صار لإبراهيم الثناء الجميل الحسن إلى قيام الساعة، فما من أمّة إلّا وتثني عليه خيراً، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الصافات: ١٠٩)

هل إسحاق هو الذبيح؟

قال أبو شبهة: " روى كثير من المفسرين، منهم ابن جرير، والبغوي، وصاحب الدرّ المنثور، في هذا روايات كثيرة عن بعض الصحابة، والتابعين، وكعب الأحبار: أن الذبيح هو إسحاق." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: " ولم يقف الأمر على الموقوف على الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك زورًا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

فقد روى ابن جرير بسنده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **الذبيح إسحاق.**" (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

قال أبو شبهة: " وهذا الحَديث ضعيفٌ ساقطٌ لا يصحُّ الاحتجاج به." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

---

[١] – **قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ مع أن تصديقها إنما يكون بالذبح، ولم يوجد ذلك منه بعد!!** قال الله له ذلك؛ لأنّ إبراهيم فَعَلَ ما في غاية وسعه فعله ممّا يقوم به الذابح من إلقاء ولده، وإمرار السكين على حلقه، لكن الله منعها أن تقطع.

[٢] – يذكر المفسرون – غفر الله لهم – قصص عجيبة حول ماهية هذا الذبح العظيم، أعرضنا عن ذكرها صفحًا.

وأخرج الدليلمي بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: **إن داود سأل ربّه مسألة، فقال: اجعلني مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأوحى الله إليه: إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتلي يعقوب بالعمى فصبر.**" (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وهذا الحَديث – أيضًا – لا يصحُّ، ولا يثبت.

قال أبو شبهة: " والحقُّ: أن المرويات في أن الذبيح إسحاق هي من إسرائيليّات أهل الكتاب، وقد نقلها من أسلم منهم، ككعب الأحبار، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسينًا للظنّ بهم، فذهبوا إليه، وجاء بعدهم العلماء، فاغتروا بها، وذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: " وحقيقة هذه المرويات، أنها من وضع أهل الكتاب؛ لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبي الأمي العربي، فقد أرادوا ألّا يكون لإسماعيل الجدّ الأعلى للنبي، والعرب فضل أنه الذبيح حتى لا ينجز ذلك إلى النبي – صلى الله عليه وسلم، وإلى الجنس العربي." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

ولأجل ذلك حرفوا التوراة، فبدّلوا لفظة إسحاق بإسماعيل، ولمّا كانت آفة الكذب النسيان، فقد غفلوا عن كلمة كشفت كذبهم، ودسّهم المشين.

قال أبو شبهة: " ففي التوراة: (الإصحاح الثاني والعشرين، فقرة: (٢)): فقال الربّ: خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض المربا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك ... ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال أيضًا: " وليس أدلّ على كذب هذا، من كلمة (وحيدك) وإسحاق – عليه السلام – لم يكن وحيده قطّ! لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا، وقد بقي إسماعيل – عليه السلام – حتى مات أبوه الخليل، وحضر وفاته، ودفنه، وإليك ما ورد في هذا:

ففي سفر التكوين: (الإصحاح السادس عشر الفقرة: ١٦) ما نصّه:

وكان أبرام – يعني إبراهيم – ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

لذا الصحيح: أن الذبيح هو إسماعيل – عليه السلام، وما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الذبيح إسحاق، قد بانَ لك ضعفه وكذبه.

قال أبو شبهة: " وما ورد عن الصحابة أو التابعين – إن صحّ سنده إليهم – هو من الإسرائيليّات التي رواها أهل الكتاب الذين أسلموا، وهي في الأصل من دسّ اليهود، وكذبهم، وتحريفهم للنصوص حسداً للعرب، ولرسول العرب، قاتلهم الله أنى يُؤفكون." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

قال ابن كثير: " (والذبيح هو إسماعيل) هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نصٌّ على الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصّة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢) ومن جعله حالاً فقد تكلف." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال ابن كثير: " وما أحسن ما استدلَّ به ابن كعب القرظي على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١)

وقال: فكيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق، وهو صغير قبل أن يولد؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدّمة، والله أعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وذكر ابن القيم عشرة وجوه تدلّ على بطلان أن الذبيح هو إسحاق، منها:

١. إن بكره ووحيده هو إسماعيل باتّفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره، وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

٢. إن قصّة الذبيح كانت بمكة قطعاً، ولهذا جعل الله – تعالى – ذبح الهدايا والقرابين بمكة، تذكيراً للأمّة بما كان من قصّة أبيهم إبراهيم مع ولده.

٣. إن إبراهيم – عليه السلام – لم يَقْدم بإسحاق إلى مكة ألبتة، ولم يفرق بينه وبين أمّه، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته، فيذبحه بموضع ضُرّتها في بلدها، ويدع ابن ضُرّتها؟! (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وأمّا ما قاله السهيلي: " أنّ الذبيح هو إسحاق احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، وإسماعيل لم يكن عنده، وإنما كان في حال صغره هو وأمّه بجبل في مكة، فكيف يبلغ معه السعي؟!" (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال ابن كثير: " وهذا فيه نظر؛ لأنه قد رُوي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة، يطلع على ولده، ثم يرجع، والله تعالى أعلم." (ابن كثير: ١٩٨٧)

الحاصل: قال أبو شبهة: " وتحيّر بعضهم في الروايات، فتوقّف، كالسيوطي، وحاول بعضهم الجمع بينها، فزعم أن الذبح وقع مرّتين، والحقُّ: ما وضحناه لك (أنّ الذبيح هو إسماعيل) فلا تجوّز، ولا تتوقّف، ولا تقل بالتكرار، والله الهادي إلى الحقّ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

ونصل الآن إلى مسك ختام القصّة!!

الفوائد المستفادة من القصة:

– في القصة تأكيد على أهمية التسليم المطلق لله – تعالى، فإبراهيم يدع امرأته وطفلها في أرض موحشة غريبة قفر بعيدة عن موطنه، لا ماء فيها، ولا شجر، ولا أنيس، ولا جليس؛ استجابة وطاعة لله – تعالى، مع ما عرف عن إبراهيم من الشفقة والرحمة، ولكن التسليم لأمر الله – تعالى – فوق كل شيء.

– في القصّة أعظم شاهد على جميل الاستسلام، وتمام الانقياد لطاعة الله وأوامره، فإبراهيم رأى رؤيا أنه يذبح ابنه إسماعيل، فلم يتفلسف أو يتأول، بل جزم أنها وحي من الله، وليست من الشيطان، وأخبر بها ولده ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾، أمّا إسماعيل سرّ والده الخليل قال: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾، وهذا يدلّل على أن إسماعيل، قد تربى تربية إيمانية عالية، وذلك منذ صغره.

– الابتلاء يكون على قدر الإيمان، فإبراهيم رزق بإسماعيل بعدما بلغ من الكبر عتيًّا، وبعد طول انتظار لهذا الوليد، وبعد تعب في تربيته، ثم يأمره الله بذبحه، وهذا هو الابتلاء العظيم، وقد نجح الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل في هذا الابتلاء، فكانت المكافأة لهما على صبرهما على هذا الابتلاء المبين.

أمّا إبراهيم مُنح وسامًا إلهيًّا رفيعاً: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٨) أي: صار لإبراهيم الثناء الجميل الحسن إلى قيام الساعة، فما من أمّة إلّا وتثني عليه خيراً، وتقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الصافات: ١٠٩)

وإسماعيل نال الجائزة السريعة من الله – تعالى، وهي النجاة من الذبح، ونزول الكبش لفدائه؛ نتيجة امتثاله لأمر الله، وبره لأبيه ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

– عند احتدام المحن تأتي المنح من ربِّ الأرض والسماوات، فعندما يطيع الإنسان ربّه؛ فإن الله سيعوضه خيرًا.

– هجرة إبراهيم بزَوْجه هاجر ورضيعه إلى أرض الحجاز حيث المكان الموحش القفر في ذلك الوقت، وتركهما بمفردهما وحيدين لأمر عجيب.

ولكن الأعجب منه هو موافقة هاجر على ذلك، خاصّة إنْ علمنا أنّ هاجر كانت قادمة من الشام حيث البيت العامر، وقبل الشام كانت مقيمة في قرى مصر المتمدنة، فما هذه المعيشة الجديدة التي بلا رفاهيّة، ولا مدنيّة، بل الهلاك يحوم وينتظر؟!

وهل يمكن أن يُرضي النفس البشريّة هذا التغيير؟! بالطبع، لا!

فَلِمَ وافقت هاجر على الهجرة إلى هذا المكان فضلًا عن البقاء فيه؟!

إنه اليقين بالله الذي تعلمته في بيت النبوّة، والذي عبرت عنه بكلمات موجزة " **فإذن لا يضيعنا** "، وكما فهمت اليقين بالله، فهمت كيف تكون زوجة معينة لزَوْجها على طاعة ربّه، وألّا تكون حجرة عثرة في طريق تنفيذ زَوْجها أوامر الله تعالى.

– من الفوائد المهمة من هذه القصة تعلّم الأخذ بالأسباب، والثقة بالله، وتتّضح هذه الفائدة عندما ترك إبراهيم – عليه السلام – زوجته هاجر وابنه إسماعيل في بيت الله –

عزّ وجلّ، وكان مكاناً قاحلاً، فزودهما بسقاء وطعام، وماذا يفعل هذا السقاء، وهذا الطعام، إلّا أخذًا بالأسباب، وثقة برب الأسباب، وكذلك من الأخذ بالأسباب سعي هاجر بين الجبلين ليس مرّة أو مرتين، بل سبع مرات، وغيرها من الأحداث التي مرت بالقصّة.

– ليس هناك علاقة بين رمي الجمرات في مناسك الحجّ، وقصّة ذبح إسماعيل، أمّا الذي ذكره جَمْعٌ من أهل العلم أن الحكمة من رمي الجمرّات في مناسك الحج: أنه لمّا عرض الشيطان لإبراهيم – عليه السلام – حين أراه الله ذبح ابنه إسماعيل فرماه بسبع حصيات، فالناس ترمي الجمار لذلك، فينقص ذلك الدليل الصحيح، فما روي لا يتعد آثار ضعيفة لا تقوم بها الحُجّة على هذا القول، وعليه الصواب: إن الحكمة من رمي الجمار ليس ما ذكروه، وإنما إعلان لعداوة الشيطان.

طلب الله تعالى من خليله إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل – عليهما السلام؛ وذلك لأن" إبراهيم اتّخذه الله خليلًا، فلمّا سأل ربَّه الولد، ووهبه له، فتعلقت شعبة من قلبه بمحبّة ولده، فأُمر بذبح المحبوب؛ لتظهر صفاء الخلّة، فامتثل أمر ربّه، وقدم محبّته على محبّة ولده." (محمّد الصابوني)

– تبرز هذه القصة الصداقة العائلية بين الأب وولده في أجلى صورها، حيث إن الملاحظ من الحوار الذي دار بين إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل – عليهما السلام، ينبئ عن علاقة قوية تتخطى طابع الأبوة لتصل لمرحلة الصداقة، وهذه الصداقة يصعب تحقيقها في هذه المرحلة من حياة الشباب، وخاصّة في مرحلة المراهقة، وتأمّل: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**﴾، يعني أصبح يسعى، أي يمشي مع والده، ويقضي له الحوائج، وهذه العلاقة تُظهر مدى الحب، والألفة بين الأب وابنه.

– أدب الحوار من أفرد فرائد هذه القصّة، فمع أن الأمر كان بذبح الولد، وهو أمر من الله، لكن إبراهيم – عليه السلام – بدأ الحوار مع ابنه باستشارته في الأمر أوّلاً، حيث قال له: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾، وهذ توجيه مهم للآباء بضرورة الحوار والمشاورة مع أبنائهم؛ حتى في الأمور المفروضة عليهم من الله

– تعالى؛ لأن الأبناء في هذه السنِّ المبكرة من حياتهم يرون أن في الحوار تقديرًا واحترامًا لشخصيتهم، ويكرهون فرض الرأي والإجبار على فعل الشيء.

– خلق الصبر من الأخلاق الحميدة خاصّة إذا كان في أصعب اللحظات والمواقف، وتأمّل كيف كان ردّ إسماعيل على الأمر بذبحه: ﴿**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾، فمع أن إسماعيل صبي صغير، ولكنه كان من الصابرين، حيث استعان بربه؛ وهذا أكبر دليل على نجاح التربية من قبل نبي الله إبراهيم الخليل.

– من ثمار طاعة الله البركة في كل شيء، فالإنسان إذا أطاع ربّه في الدنيا يبارك الله في حياته، وفي أهله، وتأمّل: عندما أطاع إبراهيم ربّه بارك الله له في ذريته، فكانت البركة في إسماعيل، والذي خرج من نسله سيد الخلق أجمعين محمد – صلى الله عليه وسلم، وبارك كذلك في ذرية إسحاق، فكان منه نبي الله يعقوب ويوسف – عليهما السلام، وهذا جزاء الطاعة يقول الله تعالى: ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ**﴾.

– إن الله – تعالى – هو القادر على كل شيء، وهو المطلع على كل شيء، وهو الذي لا يضيع من توكل عليه وحده، وسلم الأمر إليه بمفرده، مهما ادلهمت الخطوب، واشتدت الكروب، فهذه أم إسماعيل لما انتهى طعامها وماؤها، أرسل الله إليها غوثاً من عنده، وأجرى لها الماء معيناً، طعام طعم وشفاء سقم، أي غذاء ودواء.

– إن العاقبة للمتقين، وإن من أقبل على الله – تعالى – والتزم أمره، وتوجه إليه بالعبادة دون سواه، رفع الله ذكره في العالمين! وانظر – رحمك الله – كيف بقيت ذكرى أم إسماعيل في السعي إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة.

– القصّة تتضمن رسالة موجهة إلى العرب، وهمسة في أذن الذين تبرز فيهم العصبية القبلية، والافتخار بالأنساب، إلى أن أمهم هاجر كانت مولاة لسارة.

– كان ابن عباس – رضي الله عنهما، عندما يشرب من ماء زمزم، يدعو: **اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء**، قال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت نيته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذباً، ولا يشرب به مجرماً، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرمين.

قصّة بناء الكعبة

البداية:

كان إبراهيم يتردد بين الفنية والفنية إلى أرض الحجاز؛ ليطلع على حال أسرته المقيمة هناك، وفي مرّة من مرّات زياراته قابل ابنه إسماعيل – عليهما السلام، قابله وهو يبري نبلاً عند زمزم، فلمّا رآه إسماعيل قام إليه، وفعل ما يفعل الابن بأبيه، والأب بابنه من الشوق، والحنين، والحنان.

بعد ذلك خاطب إبراهيم – عليه السلام – ابنه قائلاً: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني ها هنا – وأشار إلى كثبة – بيتاً؛ ليكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)

بناء الكعبة:

ما أن سمع إسماعيل الابن البار ذلك الكلام من أبيه الخليل إلّا أن أبدى الموافقة السريعة غير المشروطة، وبالفعل شرعا يبنيان أوّل بيت لله في الأرض [1]، فأخذا يرفعان القواعد من البيت، حيث كان إسماعيل يحضر الحجارة، وإبراهيم يبني، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)

وتأمّل – يا رعاك الله: التعبير بصيغة المضارع (يرفع) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧) ألا تلحظ فيه كأنك تنظر، وترى إلى البنيان وهو يرتفع، والبنّاء إبراهيم، وإسماعيل يناوله الحجارة؟!

---

[1] - فعن أبي ذر قال: " قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلَ؟ **قال: المسجدُ الحرامُ، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم: حيثُما أدركتْكَ الصلاةُ فصلِّ، والأرض لك مسجد.**" (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

مقام إبراهيم عليه السلام:

لمّا ارتفع البناء جاء إبراهيم بحجر فقام عليه؛ ليكمل بناءه، وهذا هو مقام إبراهيم اليوم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥) أي: وقلنا للناس اتّخذوا من المقام مصلى (أي صلوا عنده).

والمقام هو حَجرٌ أثريٌّ، وهو الحَجر الذي تعرفه الناس اليوم عند الكعبة، ويصلّون خلفه ركعتي الطواف، وهو حجرٌ مربعُ الشكل طوله نصف متر تقريبًا، ولونه بين البياض والسواد والصفرة، ومغطى حاليًا بواجهة رخامية، وفي هذا الحَجر أثر قدمي إبراهيم – عليه السلام – بعدما غاصت فيه قدماه؛ وذلك لأنه حجر ماء، فغاصت فيه قدم إبراهيم، ممّا برزت فيه آثار قدميه، ولكن نتيجة لتمسح الناس طمست ملامح القدم.

قال ابن كثير: " وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليّتها، وقد أدرك المسلمون ذلك أيضًا، كما قال أنس: رأيت المقام، وفيه أصابعه، وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وكان المقام عند الكعبة، فأخّره عمر في مكانه المعروف اليوم.

دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء بناء الكعبة:

كان إبراهيم وإسماعيل يقولان أثناء بنائهما الكعبة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ (البقرة: ١٢٧ – ١٢٩)

وقد استجاب الله دعاء خليله، فبعث في ولد إسماعيل أكرم رسله محمّدًا – صلى الله عليه وسلم – على حين فترة من الرسل، فعندما سئل النبي – صلى الله عليه وسلم:

يا نبي الله، ما كان أوّل بدء أمرك؟ قال: " **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى.**" (رواه أحمد: (١٧١٥٠)، وصحّحه الألباني)

وأذن في الناس بالحج:

ما أن تمّ البنيان، وارتفع البناء، أمر الله تعالى إبراهيم – عليه السلام – أن يؤذن في الناس بحِجّ هذا البيت؛ ليشهدوا منافع لهم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ (الحج: ٢٧) أي: ونادِ في الناس داعيًا لهم لحجّ البيت العتيق، يجيبونك، ويأتون رجالًا أي مشاة على أقدامهم، أو ركبانًا على كل ضامر، وهو الجمل الهزيل الذي قد أتعبه السير، وأنهكه بُعد المسافة، وتأتي هذه الإبل من كل فجّ عميق، وهو كل طريق بعيد.

وتأمّل – يا رعاك الله: الضمير في كلمة (يأتين)، حيث قال القرطبي: " وَرَدَّ الضمير إلى الإبل (يأتين) تكرمة لها لقصدها الحجّ مع أربابها كما قال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ (العاديات: ١) في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله." (محمّد الصابوني)

وهنا يظهر تساؤل مشكل: جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ فهل كان لهما ذنوب، فاحتاجا إلى سؤال ربّهما التوبة؟

قال السبت: " قيل: إنه ليس أحدًا من خلق الله إلّا وله من العمل – فيما بينه وبين ربّه – ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة، فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا منذ ذلك، وإنما خصّا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأنّ ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما؛ وليجعلا ما فعلا من ذلك سُنّة يقتدى بها بعدهما، وتتّخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصُّل من الذنوب إلى الله." (خالد السبت: ١٤٢١)

وقال: " وجائزٌ أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريّتنا – الذين أعلمتنا أمرهم – من ظلمهم وشركهم، حتى يُنيبوا إلى طاعتك، فيكون

ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنى به ذرّيّتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي، وأهلي، وبرّني فلان إذا برّ ولدَه." (خالد السبت: ١٤٢١)

هل بنى آدم أو الملائكة الكعبة قبل إبراهيم؟

هذا السؤال من الأسئلة المشكلة، والتي شطحت في إجابتها العقول، لما رواه ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: " لمّا أهبط الله آدم من الجنّة، قال: إنّي مهبطٌ معك بيتًا يطاف من حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده، كما يصلى عند عرشي، فلمّا كان زمن الطوفان، رفع، فكانت الأنبياء يحجونه، ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله إبراهيم – عليه السلام، وأعلمه مكانه، فبناه من خمسة أجبل: من حراء، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال ابن كثير: " والأشبه – والله أعلم – أن يكون موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص، ويكون من الزملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث بما فيهما." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وذكر – أيضًا – أنَّ الذي تولّى بناء الكعبة الملائكة، وكلُّ ما سبق باطل مكذوب.

أمّا الصحيح المتعين هو: أن إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – هما اللذان توليا بناء الكعبة، وهذا هو ظاهر القرآن، والسنّة الصحيحة.

قال ابن كثير: " ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل – عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأنّ مراده: مكان المقدر في علم الله تعالى، المقرّر في قدرته، المعظّم عند الأنبياء موقعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

يبقى إشكالٌ آخرُ يحتاج إلى تحرير، وهو ما رواه أبو ذر قال: " قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلَ؟ **قال: المسجدُ الحرامُ، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم: حيثُما أدركتْكَ الصلاةُ فصلِّ، والأرض لك مسجد.**" (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

والإشكال هنا: الحَديث يذكر أن ما بين بناء المسجدين مدّة تقدّر بأربعين عامًا، فكيف يكون إبراهيم وسُليمان – عليهما السلام – هما اللذان بنيا المسجدين، وبين هذين النبيّين أكثر من أربعين عامًا؟

وأحسن ما قيل في تحرير هذا الإشكال: آدم – عليه السلام – هو الذي وضع أساس البيتين (المسجد الحرام والمسجد الأقصى)، وحسب ذلك لا إشكال أن بين بنائهما مدّة تقدّر بأربعين عامًا، وأمّا كون إبراهيم وسُليمان هما اللذان بنيا المسجدين بالرغم من أن آدم هو واضع أساسهما لا إشكال فيه أيضاً، حيث إن واضع الأساس، لا يسمى صاحب البناء الحقيقي، بينما صاحب البناء الحقيقي هو مَنْ رفعه حتى صار ظاهرًا، وعليه صاحب البناء الحقيقي للكعبة إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام، بيد أنهما رفعا البناء على الأساس الذي وضعه آدم – عليه السلام.

حِجرُ إسماعيل عليه السلام:

حِجرُ إسماعيل أو الحطيم أو الحِجر، هو بناءٌ على شكل نصف دائرة من الجهة الشمالية من الكعبة، وهو في الأصل جزء من الكعبة، حيث إن قريش حينما بنت الكعبة نقصتها النفقة؛ لأنَّها شرطت أن تكون نفقة البناء من المال الحلال، فأخرجوا هذا الجزء من البناء، وأحاطوه بسياج حتى يعلم أن هذا الجزء من الكعبة؛ لذا يعدّ هذا الجزء من الكعبة، ويأخذ أحكامها.

وأصل الحِجر أن إبراهيم حينما بنى الكعبة بمشاركة ابنه إسماعيل جعل بجانب الكعبة من جهة الشمال حِجرًا مدورًا حولها، وبنى عليه عريشًا من أراك لغنم إسماعيل؛ لتؤوي إليه، ولمّا قصرت النفقة بقريش اقتطعوا من جهة الشمال حوالي سبعة أذرع، وضموها إلى حِجر إسماعيل.

وبعد أن بُعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – رغب في إعادة بنائها على قواعد إبراهيم، بأن يضم إليها ما اقتطعته قريش منها وجعلته في الحِجر، لكنه لم يفعل ذلك؛ لأنّ الناس كانوا حَديثي عهد بالجاهليّة.

ولمّا احترقت الكعبة في زمن إمارة عبد الله بن الزبير لمكة هدمها، وأعد بناءها على الصورة التي كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يرغب ببنائها عليها، فأدخل فيها ما أُقتطع للحِجر.

وعندما قُتل عبد الله بن الزبير عام (٧٣ هـ)، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي لعبد الملك بن مروان يعلمه بما فعل ابن الزبير في بناء الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يعيد الحِجر كما كان في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم، فنقض الحجاج الكعبة، وبناها عل سابق عهدها.

وفي عهد الدولة العباسيّة أراد الخليفة المهدي أن يبني الكعبة على ما بناها ابن الزبير، فاستشار الإمام مالك بن أنس فيها عن ذلك، فقال مالك: إني أكره أن يتّخذها الخلفاء لُعبة، هذا يرى رأي ابن الزبير، وهذا يرى رأي عبد الملك بن مروان، وهذا يرى رأيًا آخر.

وللحِجر فضل عظيم، والصلاة فيه مستحبّة؛ لأنه من البيت.

ونختم هذه القصة الشيقة بهذه الفوائد الممتعة!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– لما لجأ إبراهيم المؤمن إلى الله – تعالى، وهو متيقّنٌ أنّ الله – سبحانه – مجيبٌ للدعوات، فقد استجاب الله – تعالى – دعاء إبراهيم – عليه السلام – بأن جعله وذريّته مسلمين له، وبعث في أهل مكّة رسولاً يُعلّمهم الدِّين والحكمة، وهذا ما حصل لإسماعيل – عليه السلام، وكان من نسله العرب المستعربة، وهذا كله كان نتيجة الدعاء، فأنعم بالدعاء من عبادة!

– ينبغي على المسلم ألّا يتكل على عمله مهما كان صحيحاً وصواباً، فإبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يأمرهما الله – جل ثناؤه – ببناء بيته المحرم من أجل

توحيده، فيقومان بذلك خير قيام، ومع ذلك لم يتكلا على عملهما، بل يسألان الله – تعالى – دائماً قبول العمل ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم**﴾ (البقرة:١٢٧)، فليس صوابُ العمل، وموافقته للشرع كافياً في القبول، بل لا بدَّ من الإخلاص لله – تعالى – من شوائب الشرك وحظوظ النفس.

– في القصّة مزيدًا من الأدلّة على حسن تربية إسماعيل الدينية والأخلاقية، ويظهر ذلك من خلال امتثال إسماعيل السريع لإجابة طلب أبيه في مساعدته بناء الكعبة.

– أَمْرُ الله تعالى إبراهيم بناء الكعبة يشير إلى عدّة أمور، منها: أهمية وضع المساجد في الأرض، وتأكيد التوحيد الخالص لله تعالى، وقدسية الكعبة كونها مثابة للناس، ورمزًا للوحدة بين جميع فئات المسلمين.

o o o o

قصّة سحرة فرعون

البداية:

أرسل الله تعالى رسوليه الكريمين موسى وهارون إلى الطاغية فرعون وملئه؛ ليبلغاهم رسالة ربّ العالمين، فقاما بهذه المهمة خير قيام، واجتهدا فيها أعظم اجتهاد، على ما فيها من مشقة، وخطورة، وعناء.

إنّا رسولُ ربّ العالمين:

وبالفعل ذهب النبيان الكريمان إلى فرعون وملئه اللئام، ليبلغاهم رسالة رب العالمين، وممّا قالاه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦)، وما أن سمع منهما الطاغية هذا الكلام إلّا ابتدر موسى قبل أنْ يكمل كلامه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؟!

قال حبنكة: " في هذا النصّ نلاحظ أنّ سؤال فرعون عن ربّ العالمين هو سؤال عن شرح الاسم، أي: ما معنى ربّ العالمين؟

إنّه لا يجهل معنى كلمة (ربّ)، ولا يجهل معنى كلمة (العالمين)، لكنه سأل عن الاسم المؤلف من ربّ العالمين؟" (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

شرح له موسى معنى ربّ العالمين قائلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۚ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٤)

استغراب فرعون من توصيف موسى لمعنى رب العالمين:

عندما سمع الطاغية هذا التوصيف لمعنى ربّ العالمين التفت إلى الملأ من حوله، وهو يقول مستغربًا: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٥)، واستغراب فرعون لتوصيف موسى السابق لمعنى ربّ العالمين؛ لأنّ موسى حصر الأرض، والسماوات، والملكوت تحت سلطان ربّ واحد، وقد كان فرعون يتصوّرُ أنّ كائنات هذا الكون يتحكم فيها عدّة أرباب، وكان فرعون يعدّ نفسه ربّ إقليم مصر.

وأيضًا يشتم من قول فرعون ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٥) رائحة الهزء والسخرية؛ لذا زاده موسى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦)

حنق فرعون على موسى:

هنا يغضب الطاغية فيخرج من المناظرة والمحاورة إلى السبّ والمهاترة، فقال بهذيان وغرور: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ (الشعراء: ٢٧)

فدمغه موسى بآية لا تقاوم: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٨)

فيشتدُّ الغضب بالطاغية، فيغرب عن الصواب، ويذهب إلى الإبراق والإرعاد قائلًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩)

تحدي موسى للطاغية فرعون:

لم يبقَ لدى موسى سوى أنْ يلقي في وجه فرعون بالآية الكبرى التي تلقمه الحجر، فقال له: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ (الشعراء: ٣٠) أي: أو لو جئتك بمعجزة شاهدة تدلّ على صدقي بأنّي رسول ربّ العالمين.

لم يبدِ فرعون أي اكتراث لهذا الشيء المبين، وقال عنه مستهزئًا: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦)

والأليق بالسياق أنْ يقول فرعون: فأتِ بها إنْ كنت من الصادقين، مباشرة، فَلِمَ قال فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦)؟! الجواب: لأنّ " معناه إنْ كنت جئت بآية من عند الله فأتني بها." (زكريا الأنصاري :٢٠٠٣)

على كل حال ما كان من موسى بعدما سمع هذا الهزء السافر من فرعون إلّا أن ألقى عصاه، فما أن ألقاها موسى إلّا ﴿هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ (الأعراف: ١٠٧)، ثم عالجهم بالآية الثانية: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٨)

اتّهامات فرعون لموسى:

أدهش موسى فرعونَ والحاضرين، وانتزع منهم إعجابًا، وفي نفس الوقت ملأ قلوبَهم ارتياعًا، فأراد فرعون أنْ يقلّل من شأن انتصار موسى هذا، فعمد إلى الآية التي أبهرت الجميع وأرعبتهم، فهون فرعون منها بدعوى أنّها من نفس جنس السحر الذي يقوم به السحرة أمثاله، ولكنه لم يملك إلّا أنّ يصف موسى ببلوغه الدرجة السامية في الحذق في هذا الباب، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾ (الشعراء: ٣٤)، ثم هيّج فرعون الخبيث قومه على موسى بدهاء ومكر، بأنّ استغل أمرًا محبوبًا لديهم وهو المُكْثُ معززين مكرمين في أوطانهم، فلعب على هذا الوتر الحسّاس، ورهّبهم من أنّ موسى يهدف من وراء ذلك إلى إخراجهم ممّا يحبون!! ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ (الشعراء: ٣٥)

والعجيب أنّ الملأ من قوم فرعون كان رأيهم نفس هذا الرأي ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ (الأعراف: ١٠٩ – ١١٠).

مشاورة فرعون لملئه في أمر موسى:

فرعون كان مستبدًا برأيه مستخفًا بهم [1]، ومع ذلك شاورهم قائلًا: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ (الشعراء: ٣٥) أي: " فبأي شيء تأمروني، وبما تشيرون عليّ أنْ أصنع به؟" (محمّد الصابوني)

والتساؤل هنا: لِمَ نزل فرعون المتعجرف المتغطرس إلى مشاورتهم؟

---

[1] – استبداد فرعون برأيه يدلّ عليه قوله لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، بينما استخفافه بهم، فيظهر في قوله:﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾!

الجواب: نزل فرعون إلى مشاورتهم بعدما كان مستخفًا بهم مستبدًا برأيه، خشية أنْ يتّبع قومه موسى.

ويبدو أنّ الطاغية فرعون كان يطمع أنْ يشير قومه عليه بقتل موسى وأخيه، فيستريح منهما، ويسلم له ملكه، ولكنهم أشاروا عليه بأنّ يرجئ موسى وأخاه، ولا يستعجل في أمرهما، ويواجههما بسحر مثله: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ (الأعراف: ١١١)

استحسان فرعون رأي بطانته الفاسدة:

بالرغم من أن فرعون كان شديد التغطرس، والاعتداد بنفسه ورأيه، إلّا أنه استحسن رأي بطانته الفاسدة، فراح يطلب المنازلة بإصرار وعتوّ: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾ (طه: ٥٨) وكلمة (موعدًا) يجوز أنْ تكون ظرف زمان، أي: حدّد وقت المنازلة وتاريخها، ويجوز أنْ تكون ظرف مكان، أي: حدّد لنا مكانًا معلومًا للمنازلة نعرفه نحن وأنت، وكلا المعنيين مقصودان، والمعنى: فلنعارضك بسحر مثل الذي جئتنا به، فعيّن لنا وقت هذه المنازلة ومكانها، بحيث لا نخلف ذلك الموعد لا نحن، ولا أنت.

ولِمَ ترك فرعون وملؤه لموسى تحديد زمان هذه المنازلة ومكانها؟

لغرورهم بقوّتهم، وسطوتهم، وكأنّهم متيقنون بغلبتهم، وانتصارهم.

تأسف موسى على رفض فرعون وقومه الحقّ:

قبل موسى المنازلة، متأسفًا على عقولهم السخيفة الغبيّة التي جعلتهم يرفضون الحقّ، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ (يونس: ٧٧)، ولكن هذا التأسف لم يلق أي صدى عندهم، حيث قالوا: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٧٨)

ويا للعجب!! هي هي نفس التهمة قديمًا وحديثًا لكل الطغاة المتكبرين، ألم يقل قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤)؟!

موعدكم يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى:

عندئذ تيقّن موسى من أنّه لا أمل في استجابتهم لدعوته، ولا قَبول فكرته، فحدّد لهم موعد المنازلة في ضُحى يوم الزينة [1]، كما وحدّد مكانها في أوضح ساحة في المدينة، ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ (طه: ٥٩)

وقد اختار موسى يوم الزينة بالذات؛ لأنّه يومُ عيدهم، وهو أفضلُ يوم يُتوقع أنْ يحضر فيه غالبية سكان مصر قبطًا وإسرائيليين، واختار موسى – أيضًا – أنْ تكون المواجهة في ضحى هذا اليوم، وفي مكان ظاهر بيّن؛ لزيادة إبراز وإيضاح بزوغ نور الحقّ المبين، وأفول ظلام ليل القوم الكافرين.

قبول فرعون المنازلة:

قبل فرعون المتكبر المغرور المنازلة، وما حمله على موافقة منازلة موسى إلّا ليثبت للجميع أنّه الإله العظيم! وحتى لا يتجرأ أحدٌ بعد ذلك أنْ ينازعه مُلكه القديم ولو تخيّلًا، فكان الطاغية مغرورًا بقوّته وتجبره!

استعداد فرعون للمواجهة:

برغم من غرور فرعون وغطرسته إلّا أنّه أخذ تحدي موسى على محمل الجدّ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ (طه: ٦٠) أي: فنشر فرعون شرطته، تجمع له أحذق السحرة، ولم تجد شرطته عناء في جمع جمّ غفير من السحرة الحاذقين، فقد كانت بلاد مصر مملوءة بالسحرة الماهرين.

وبالفعل جمعت شرطة فرعون بسرعة سحرةٌ كثر [1] للموعد الذي حدّده موسى – يومُ الزينة، وتسلحوا بكل ما يقدرون عليه من ألوان السحر وفنونه، قال تعالى:

---

[1] – يوم الزينة: هو يوم عيدهم، الذي يتزينون، ويجتمعون فيه.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ (الشعراء: ٣٨)، وتأمّل الفاء في (فَجُمع) ألا تشعرك بهذه السرعة والجهوزية؟!

ابتزاز السحرة لفرعون:

وجد هؤلاء السحرة الفرصة سانحة أمامهم؛ لكي يملوا شروطهم على فرعون، فقالوا لفرعون بلغة المحترف الذي مقصدُه الأوّل ما يحصل عليه من الأجر والعطاء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤١)، فها هم يستوثقون أوّلًا من جزالة العطاء وضخامته!

فرعون يرضخ لشروط السحرة:

شعر فرعون بهذا الابتزاز من السحرة، ولكن خطر موسى جعله يرضخ لأي شرط في سبيل هزيمة موسى، وإبقاء مُلكه وسلطانه، فقال لهم: ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء: ٤٢) فلم يرضخ فرعون لهم وحسب، بل زادهم على ما طلبوه بأنّه سيجعلهم من جلسائه المقربين، وأصحاب الحظوة لديه المتمكنين؛ ليكون ذلك تشجيعًا لهم على إجادة المنازلة.

وهكذا اتّفق فرعون والسحرة، وهو وهم لا يعلمون أنّ الموقف المقدمين عليه ليس موقف مهارة، واحتراف، وتضليل، إنما هو موقف معجزة، ورسالة، وغلبة دين الله المستقيم، على ما سنعرفه إنْ شاء الله تعالى رب العالمين.

اللقاء المرتقب المشهود:

جاء يومُ اللقاءِ المرتقب! جاء يوم الزينة! فتجمع الناس في أكبر ساحات المدينة، وجلسوا مترقبين المواجهة بين موسى وسحرة فرعون، جلسوا في صعيدٍ واحدٍ فرادى وجماعات، بينما جلس فرعون المتغطرس منفردًا عن العامّة، وحوله زبانيته الذين جاءوا عن بكرة أبيهم، تنفيذًا لأمره؛ ليشهدوا نصره المؤزّر! والتفوا حوله، وهم يهتفون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤٠)

---

[١] – ذكر أنّ عدد السحرة الذين جمعوا لمجابهة موسى كانوا (٧٢) ساحرًا، وهذا التحديد يظهر أنّه مأخوذ من الإسرائيليات؛ لذا الصواب: عدم الخوض في تحديد عددهم.

استبشر فرعون بهذا الجمع، وبهذا الهتاف، وهيهات هيهات! كذبت والله ظنّونه، وأخطأت آراؤه، فهل يعارض كذبه وبهتانه خوارق العادات التي سيجريها الديّان على يد كليمه الربحان المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأذهان؟!

المواجهة المباشرة بين موسى والسحرة:

تقابل الفريقان، واصطف الخصمان، فابتدر موسى بالنصح لهؤلاء السحرةِ المُغرّرِ بهم، وقال: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ (طه: ٦١) أي: لا تكذبوا على الله دجلًا، فيستأصلكم ويهلككم، وقد خسر من كذّب، وتولّى.

استمع السحرة لهذه الموعظة الصادقة القويّة، ويبدو أنها قد أثرت في جزء كبير منهم، ممّا جعلتهم يتناجون فيما بينهم، وبعيدًا عن سمع الحاضرين.

حيث قال فريق منهم: هذا نبيٌّ، وليس ساحرًا، بينما قال فريق آخر: بل هو ساحرٌ، ويبدو أنهم بعد أخذ، وردّ، وبعد تشاور، وتناظر استقرَّ رأيُهم على إنّه ساحرٌ، ثم قالوا لبعضهم بعضًا تآزرًا، وتشجيعًا، وتأكيدًا: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ (طه: ٦٣) أي: " قالوا بعد التشاور: ما هذان إلّا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر، وإخراجكم منها بهذا السحر." (محمّد الصابوني)

وقالوا: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ (طه: ٦٣) أي: وإنّ هدفهما من قولهما هذا هو إفساد دين آبائكم، والذي أنتم عليه، والذي هو أفضل الأديان.

وقالوا أيضًا: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ (طه: ٦٤)، والفاء في (فأجمعوا) هي الفاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك من موسى وهارون بحيث قد جاءا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما هذا، فأحكموا أمركم، ولا تنازعوا فيما بينكم، وارموه عن قوس واحدة، ثم ائتوا مكان المواجهة، وأنتم مصطفون؛ ليكون ذلك أهيب في صدر موسى والحاضرين، ثم قالوا: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ (طه: ٦٤) أي: الفائز

اليوم من غلب موسى، وقد قصدوا بالفلاح هنا: الجوائز والعطايا التي وعدهم بها فرعون.

تحدي السحرة لموسى:

توافق السحرة على مواجهة موسى، وسلّوا أنفسهم بالجُعْل الذي رصده لهم فرعون، وابتغاء الزلفى لديه، فقالوا متحدين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ (طه: ٦٥) أي: قال السحرة لموسى: إمّا أنْ تكون أنت البادئ بالإلقاء، أو نكون نحن البادئون!

تساؤل: لِمَ خيّرت السحرة موسى بين أن يكون هو أوّل من يلقي أو هم؟

قال الزمخشري: " إنّ تخيرهم إياه أدبٌ حسنٌ راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أنْ يتخاصموا في الجدال، والمتصارعين قبل أنْ يتآخذون في الصراع. (الفخر الرازي)

وما ذكره الزمخشري محتملًا لكنه لا دليل عليه.

والأقرب: خيروه ثقة منهم أنّ الغلبة ستكون لهم؛ ولاعتقادهم أن لا أحدًا يستطيع مقارعتهم فضلًا عن الانتصار عليهم!

ثقة موسى بوعد الله بالنصر والتمكين:

قابل موسى تحدي هؤلاء السحرة بثقة المؤمن المنتظر من الله وعده بالنصر والتمكين، فقال لهم: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ (طه: ٦٦) حيث ترك لهم موسى فرصة البدء، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة.

ما الحكمة من استبقى موسى لنفسه الجولة الأخيرة؟!

قال أبو السعود: " قال ذلك مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم، حيث بتَّ القول بإلقائهم أوّلًا، وإظهارًا لعدم المبالاة بسحرهم؛ ليبرزوا ما معهم، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم، ثم يُظهر الله سلطانه، فيقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه." (محمّد الصابوني)

وبالفعل ألقى السحرة حبالهم وعصّيهم، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤)

فلما ألقوا حبالهم وعصّيهم سحروا أعين الحاضرين، واسترهبوهم، وجاءوا بسحر عظيم حسب ما عندهم؛ لأنّه وإنْ كان كثيرًا فليس بعظيم على الحقيقة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦)

ما نوع السحر الذي كان يقوم به سحرة فرعون؟

السحرُ ضروبٌ وأنواعٌ، **والسحر الذي استخدمه سحرة فرعون هو سحر التخييل والخداع:**

قال الجاسم: " وهو التخيلات، والأخذ بالعيون، ومبنى هذا النوع على القوّة الباصرة، والتي قد ترى الشيء على خلاف ما هو عليه في الحقيقة، لبعض الأسباب العارضة؛ ولأجل هذا كانت أغلاط البصر كثيرة، ألا ترى أنّ راكب السفينة إذا نظر إلى الشطّ رأى السفينة واقفة والشطّ متحركًا، وقد كان سحر سحرة فرعون من هذا النوع، فهو تخييل، وأخذ بالعيون، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦)

فإطلاق التخييل في الآية على سحرهم نصٌّ صريحٌ في ذلك، وقد دلَّ على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦)؛ لأنّ إيقاع السحر على أعين الناس في الآية يدلّ على أنّ أعينهم تخيلت غير الحقيقة الواقعة، والعلم عند الله – تعالى." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

وذُكر: أنّ سحرة فرعون اتّخذوا عصى مجوفة مملوءة بالزئبق، وكذلك الحبال كانت من جلد محشوة زئبقًا، ويُذكر أنهم لمّا احتاجوا إلى حرارة لتحريك الزئبق – لأنَّ من شأن الزئبق إذا أصابته الحرارة أن يتمدّد، فيتخيّل الناس أنّ هذه العصى والحبال تسعى – حفروا تحت موضع مواجهة موسى أسرابًا وملؤها نارًا، والأقرب أن الحرارة التي احتاجها السحرة لتحرك الزئبق هي حرارة الشمس، والله أعلم.

قال الجاسم: " ولا مانع من أنْ يتوارد نوعان على شيء واحد (الأخذ بالعيون، وملء العصى والحبال زئبقًا)، فيكون داخلًا في هذا، وفي هذا." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

خوف موسى من سحر السحرة:

ما أن رأى موسى هذا السحر العظيم إلّا أن امتلأ قلبه خوفًا ممّا رآه من سحر السحرة حسب طبيعته البشريّة، وهذا الخوف لا يعاب عليه موسى، ولا يقدح في إيمانه بالله، وحسن توكله على الله، وثقة بوعد الله بالنصر والتمكين، حيث هذا ممّا يعتري النفس البشرية في مثل هذه المواقف.

تدخل العناية الإلهية الفائقة:

الله البر الرحيم بعباده ما كان أن يترك عبده ورسوله موسى يواجه هذا الموقف العصيب بمفرده، فسرعان ما جاء موسى التطمينُ الإلهي ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٨) أي: قال الله لموسى: لا تخف ممّا توهمت، فأنت ستكون المنتصر عليهم، وتأمّل – يا رعاك الله: لقد أكد الله تعالى هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات، وهي: إنّ، وتكرير الضمير، والتعبير بالعلوّ المفيد للاستعلاء عليهم.

ثم أوحى الله إليه في هذه اللحظة الحاسمة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ (طه: ٦٩) أي: ألق العصا التي في يمينك تبتلع سحرهم وشعوذتهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩) أي: الذي تراه هذا ما هو إلّا من باب السحر لا أكثر، وهؤلاء السحرة وأمثالهم لا يسعدون في دنياهم، ولا يفوزون بمطلبهم؛ لأنّهم كاذبون مضلّلون.

اطمئنان موسى لقرب نصر الله:

اطمأنّ موسى أنَّ أمر الله قد صار قريبًا، وأنّ نصره بات حاصلًا، فألقى عصاه قائلًا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨١ – ٨٢) أي: قال لهم

موسى: ما جئتم به الآن ما هو إلّا السحر الذي طالما أتهتموني بتعاطيه، وسحركم هذا سيمحقه الله بإظهار بطلانه أمام الناس، وهذه سنّة الله في كونه أنّه لا يصلح عمل من يسعى بالفساد.

وما أنْ ألقى عصاه حتى ابتلعت كل إفك السحرة، قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١١٨)

وتأمّل – وفقك الله للحقّ– هذه الآية: ففيها تصويرٌ بديعٌ، حيث جسّم الله هذا الحقَّ الذي كان عليه موسى، وكأنّه شيء ذو ثقل ينزل على شيء آخر باطل خفيف الوزن، فمحاه وأزاله من الوجود!

إيمان السحرة بموسى:

هكذا أذهل المشهد الجميع لاسيما السحرة الماهرون، فأقعدهم ما رأوا، وكشف الله به عن قلوبهم الغفلة، وأزاح القسوة، فخروا لله سجدًا، وقالوا أمام الحاضرين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢١ – ١٢٢)

ولقد كان السحرة هم أوّل من آمن بموسى؛ لأنهم كانوا أكثر الناس معرفة بأنَّ هذا ليس بسحر، ولا بشعوذة، وذلك بحكم خبرتهم بهذه الصنعة، فصدعوا أجمعين: **﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢١ – ١٢٢)**

ذهول فرعون، وزجره للسحرة:

أَذْهل فرعون تفوق موسى، ولكن ذهوله الأكثر كان من قول السحرة وفعلهم، ممّا أفقده صوابه وهدوءه، وشعر أنَّ كبرياءه يُخدش، وأنَّ كرامته تُهان، وأنَّ عرشه يهتزُّ من تحته، ففكّر وقدّر، فقُتِلَ كيف قدّر!!

فبادر الطاغيةُ يخاطب السحرةَ بحضور الناس أجمعين، وكأنّه يقول: إياك أعني، واسمعي يا جارة، خشية اتّباع الناس السحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ (الشعراء: ٤٩) أي: أآمنتم به؟ وقد حذفت همزة الاستفهام، وهذا من خصائصها.

اتّهام فرعون السحرة بتهمة المؤامرة:

فرعون الطاغية الداهية كان سريع البدهيّة والمخادعة، حيث سرعان ما رمى السحرة بتهمة المؤامرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ (الشعراء: ٤٩)، وقد قال فرعون هذا الكلام للتلبيس على قومه؛ لئلا يعتقدوا أن السحرة – وهم المثل الأعلى في عين القبط – آمنوا بموسى عن بصيرة، وظهور حقّ، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ (الأعراف: ١٢٣) أي: قال فرعون: إن إيمان السحرة بموسى لأمر دبر بليل؛ لتشريدكم أيها القبط من بلادكم التي تكرمون فيها.

ولمّا كانت نظرية المؤامرة خدعة لا تنطلي على أحد، حيث كلّ فرد في مملكة فرعون يعلم أنَّ موسى لم يرَ هؤلاء السحرة يومًا من الدهر قط، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟! لذا نحى فرعون منحى آخر، وهو التهديد والوعيد.

توعد فرعون للسحرة:

أدرك فرعون أنَّ حيلته لم تلقَ القبول، وأنَّ المزاج العام يتجه نحو الاقتداء بالسحرة واتّباع موسى وهارون، فاستخدم فرعون التهديد المباشر، فأبرق وأرعد قائلًا: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ (الشعراء: ٤٩) أي: سوف تعلمون أيها السحرة عند عقابي لكم وبال ما صنعتم من الإيمان بموسى، وهذا الكلام وإن كان موجه للسحرة فإنه يحمل تهديدًا مبطنًا لعامّة الناس قبطًا وإسرائيليين.

ثم غلظ العقاب على السحرة قائلًا: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ (طه: ٧١) أي: لأقطعن اليد اليمنى لكل واحد منكم مع رجله اليسرى، أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ (طه: ٧١) أي: ثم بعد ذلك لأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ (طه: ٧١) أي: " ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذابًا وأدوم، هل أنا أمْ ربّ موسى الذي صدقتم به، وآمنتم؟" (محمّد الصابوني)

قاتله الله ما أفجره!!

حيث توعدهم الطاغية بعقاب لم يفعله أحد من قبله [1]، ظنًّا منه أن عقابًا كهذا كفيل بأن يرعب السحرة، ويرجعهم عن إيمانهم بإله موسى وهارون، ولكن خاب فأله، وانهزم خيله، فإنَّ الايمان الصادق إذا ما خالط بشاشة القلوب أنّى نزعه؟

ثبات السحرة في وجه فرعون:

أجاب السحرةُ فرعون بثقة المؤمن الصابر المحتسب: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ (طه: ٧٢ – ٧٥)

وقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ (الأعراف: ١٢٥ – ١٢٦)

وقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الشعراء: ٥٠ – ٥١)

تساؤل: كيف قال السحرة عبارات مختلفة والقصّة واحدة؟

قال زكريا الأنصاري: " حكى الله ذلك عنهم مرارًا، بألفاظ متساوية معنى، جريًا على عادة العرب في التفنن في الكلام، والحذف في محلّ، وإحالةً على ذكره في محلّ آخر، وإنما خولف في ذلك؛ لئلا يُملّ إذا تمحَّض تكراره." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

[1] - قال ابن جرير: " أوّل من قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو فرعون، وأوّل من صلب هو فرعون." (ابن جرير: ٢٠٠٢)

نهاية السحرة البطولية:

استشاطَ فرعون غيظًا من ثبات السحرة وعدم اكتراثهم لوعيده؛ فأَتْبَعَ القول العمل، ففتك بهم، ومثّل بجثثهم فقطع الأيدي والأرجل من خلاف الرجل اليمنى مع اليد اليسرى، أو بالعكس، ثم صلبهم في جذوع النخل، وكأنَّه يتشفى بذلك لكبريائه المهان بهذا الصنيع البشع، فقضوا نحبهم رضوان الله عليهم.

يقول السعدي: " ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأتِ في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل ...، ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

ومن الأدلّة على تنفيذ فرعون ذلك التهديد قول ابن عباس: " كانوا في أوّل النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة. " (محمّد الصابوني)

وهكذا انتهت قصة البطولة والثبات!!

ونقطف الآن أهمّ قطوفها الدانية المثمرة!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– الابتلاء سُنة ماضية إلى يوم القيامة، فأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فالسحرة ابتلوا ابتلاءً عظيمًا، وهو القتل والصلب، ومع ذلك صبروا، وتأمّل قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ (الأعراف: ١٢٤ – ١٢٦)

– عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا؛ ولذلك آثر السحرة ما يحصل لهم من عذاب فرعون في الدنيا على عذاب الآخرة، تأمّل: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٢ – ٧٤]

– إن دأب الطغاة والمجرمين تلفيق الأكاذيب والتهم الباطلة؛ ليروِّجوا على الناس باطلهم، فإن فرعون ادَّعى أن ما حصل كان بترتيب بين السحرة وموسى، مع أن موسى – عليه السلام – أتى من مدين وحيدًا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة، ولا بغيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه مباشرة، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاؤوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشدَّ الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى، واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال.

– إن الله تعالى ثبَّت هؤلاء السحرة، فصبروا على هذا البلاء الذي حصل لهم مع قِصَر المدة التي آمنوا فيها، حيث لم يَمكثوا مع موسى – عليه السلام – سوى أيام؛ وذلك ببركة دعائهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦)

– من ذكاء مناظرة أهل الباطل أن تدعهم يُلقوا باطلهم وشبهاتهم، ثم تُلقي عليها براهين الحقّ وألوانه، فتمحقها، وتحرقها حتى تكون رمادًا، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه: ٦٥، ٦٦)

– من أعظم نعم الله على عباده الثبات عند المقلقات والملمات، ومَنْ أنعم الله عليه بهذه النعمة، فإنه سيكون صائب القول، ونافذ الفكر، وصحيح الفعل، وأمّا مَنْ حُرِمَ منها فقلقه وروعه سيذهب فكره، ويذهل عقله، وتصبح أقواله وأفعاله خبط عشواء، والمتأمل في قصّة سحرة فرعون يجد الثبات بعد إيمانهم كان لهم قرينًا عند مواجهة فرعون، فلا عجب أن تأتي أقوالهم صائبة، وأفعالهم صحيحة.

- **هل يجوز تعلم السحر دون العمل به؟**

بداية: ما المقصود بالسحر؟

السحر: " التمويه بالحيل، والتخاييل، والخفاء، والصرف، والاستمالة، والخداع، وغيرها من المعاني." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

وهل يجوز تعلمه دون العمل به؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأوّل: يجوز ذلك، وقد عدّه الرازي واجب التعلم!

القول الثاني: لا يجوز مطلقًا، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب إن شاء الله.

- ما المقصود بقول السحرة: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾؟

هذا القول من السحرة كان في معرض حديثهم مع فرعون عندما توعدهم بالعقاب الأليم لاتّباعهم موسى، أمّا مقصدهم بإكراه فرعون لهم: ذُكر: كان إكراههم هو أمره لهم للشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلمّا أكرهوا على القدوم، وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فكان إكراههم بالنسبة إلى أوّل الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر.

ويُحتمل: أن فرعون كان يجبرهم على تعاطي السحر من خلال مدحه للسحرة، وإجزال العطاء لهم، وبالجملة هيّأ الجوَّ العام لانتشار السحر وتعاطيه؛ لذا نسب السحرة تعاطيهم للسحر بأنه إكراه من فرعون لهم بحسب هذا المعنى.

ويُحتمل: أنهم قصدوا بالإكراه هنا: ما حدث من تدخل خفي من فرعون عندما شعر باختلاف السحرة في موسى في بداية المواجهة: أهو نبي أم ساحر؟ عندها تدخل فرعون بطريق خفي خبيث لحثّهم على مواجهة موسى، والله أعلم.

وقد خصّوا السحر بالذكر بالذات مع أنه يدخل في عموم خطاياهم، للإشعار بشدّة نفورهم منه، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان.

- قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ (الأعراف: ١٢١ – ١٢٢) بينما قالوا في سورة طه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (طه: ٧٠) بتقديم هارون على موسى، فهل لهذا التقديم سرّ؟

علّل فضل عباس تقديم هارون على موسى في هذا الموضع بالذات مع أنّ المواضع الأخرى قُدم فيها موسى، قائلًا: " فذهب بعضهم إلى أنّ موسى أُخّر في هذه الآية مراعاة لفواصل السورة، حيث إنّ السورة كلها وهي سورة طه تنتهي بهذه الفاصلة

...، وإننا مع تقديرنا لجمال الإيقاع، وفنية الجرس، لكننا لا نراه السبب الذي من أجله جيء بهذه الفاصلة بل لا بدّ من سبب آخر يتصل بالمعنى والسياق.

وذهب بعضهم إلى أنّ هذه الآية جاءت هكذا؛ لأنّها تحكي لنا ما قاله السحرة، فبعضهم قال: " **ربّ موسى وهارون** "، وبعضهم قال: " **ربّ هارون وموسى** "، فحدثتنا كل آية عن فريق من أولئك المؤمنين، ونرى أن هذا لا يقدم لنا حلًّا مقبولًا، ولا يعطينا جوابًا مقنعًا، فالتساؤل لا يزال باقيًا، لماذا قُدّم هارون في سورة طه، وأُخّر في غيرها من السور القرآنيّة؛ إنّ الأمر – إذن – يحتاج إلى فكر وبحث.

الذي يبدو لي – والله أعلم بما ينزل – أنّ سورة طه هي السورة الوحيدة التي قد حدثتنا عمّا كان من موسى – عليه الصلاة والسلام – من خوف، وكان حريًّا به ألّا يكون منه ذلك، فهارون أولى بالخوف من موسى – عليهما الصلاة والسلام؛ لأنّه لم يشاهد ما شاهده موسى، ولم يشرف بمناجاة الحقّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ (طه: ٦٧ – ٦٨)

فكان حريًّا أنْ يكون رابط الجأش، ثابت الجنان، من أجل ذلك يلوح لي أنّ هارون – عليه الصلاة والسلام – قُدِّمَ في هذه السورة، وهي قيمة قرآنيّة عظيمة حريّ بنا أن نقف عندها، ونتدبرها، وهي تقدير كل عامل بعمله." (فضل عباس وسناء عباس)

o o o o

قصّة مؤمن آل فرعون

البداية:

رأى فرعون من آيات ربّه الكبرى ما رأى، فهل ارْعَوى عن بغيه؟ وهل انتهى عن غيّه؟ لا، لم ينتهِ، بل قام بأعمال دمويّة، بقصد إخماد الثورة التوحيديّة التي أشعلها موسى وهارون، ففتك بمَنْ فتك من السحرة الأبرار البررة، وأغرته بطانته الفاسدة على الفتك – أيضًا – بموسى وبني إسرائيل الفئة المغلوبة المضطهدة قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) أي: أتتركهم يا فرعون، يعبدون ربّ موسى وهارون، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك، فيظهر للناس عجزك وعجزها، فتكون الطامّة الكبرى التي بها يفسدون ملكك.

وتأمّل – وفقك الله للحق – في كلام الملأ السابق: ألا تراه يطفح بأشدّ ألوان التآمر، والتحريض، والعدوان، فها هم يخوفون فرعون فقدان الهيبة والسلطان، ويحرضونه على القتل والطغيان!

على كل حال أجابهم فرعون بنفس منطقهم منطق الطغاة: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٧)، ثم اعتذر فرعون للملأ من قومه على إبطائه في استئصال موسى وقومه، قائلًا: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) أي: هم لا يقدرون أن يفسدوا في الأرض، ولا أن يخرجوا على طاعتنا.

فرعون يصدّ بني إسرائيل عن الإيمان بموسى:

نفذ الطاغية وعده، فوقع التقتيل الثاني لذكور بني إسرائيل، وكان الدافع لهذا التقتيل إهانتهم وإذلالهم، ومنعهم من الإيمان بموسى، وقد نجح الخبيث في ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: ٨٣) أي: لم

يؤمن من بني إسرائيل إلّا مجموعة من الشباب صبروا على الخوف لمّا نبت في قلوبهم من الإيمان.

وتأمّل: كانت غالبية الذين آمنوا بموسى من شعب بني إسرائيل كانوا من الشباب، فما السرُّ في ذلك؟!

قال السعدي: " الحكمة – والله أعلم – أنَّ مَنْ آمن بموسى (من بني إسرائيل) هم الشباب، أنَّ الشباب أقبل للحقّ، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممّن تربّى على الكفر، فإنهم – بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة – أبعد عن الحقّ من غيرهم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

وليس معنى ذلك أن بقية قوم موسى كفروا به، إذ يحتمل أنهم قد آمنوا بموسى بعد ذلك، لمّا بلغتهم دعوته، حيث إن بدء دعوته كانت لفرعون وقومه.

شكوى بني إسرائيل لموسى:

ضجَّ بنو إسرائيل بالشكوى لموسى – عليه السلام – لِما يلقونه على يد فرعون وزبانيته الجلادين من ذلّ، وهوان، وظلم، وتقتيل، فقال لهم موسى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، فأوصاهم بأن يصبروا، ويكونوا متقين، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن تكون الغلبة لهم.

ذَكَّرَ بنو إسرائيل موسى بعذاباتِهم القديمة: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ (الأعراف: ١٢٩) أي: كان أبناؤنا يقتلون قبل مجيئك وبعده!!

موسى يمسح آلام قومه من بني إسرائيل:

شعر موسى بآلامهم فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ (الأعراف: ١٢٩)

قال القرطبي: " (عسى) من الله واجب، جدّد لهم الوعد، وحقّقه، وقد استخلفوا في مصر زمان داوود وسُليمان – عليهما السلام، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وأوصاهم موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤) فما كان منهم أمام هذا الصدق من موسى بالبشارة والتطمين إلّا التسليم والإذعان لربّ العالمين، والدعاء بالنصر والتمكين: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ (يونس: ٨٥ – ٨٦)

فرعون يصدّ قومه (القبط) عن الإيمان بموسى:

بعدما نجح فرعون الخبيث الماكر في منع بني إسرائيل من اتّباع موسى، أخذ يصدُّ قومه عن اتّباع موسى، وذلك بالتضليل الإعلامي، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١) أي: قال فرعون لقومه عامّة، ولرؤسائهم خاصّة: أليس بلاد مصر الواسعة بأنهارها وخلجانها ملكًا لي؟ فأبصروا، ووازنوا بين سعة ملكي وعظمة سلطاني، وبين فقر موسى وذلّته!

واستفهام فرعون هذا كان محاولة خبيثة؛ لانتزاع إقرار جماهيري غوغائي من قومه بتفوقه على موسى، حيث إنه مَلِكُ مصر، بينما موسى لا مُلْكَ له، ولا سلطان، وفي كلام فرعون هذا يشتم فيه رائحة التكبر والغرور!!

ثم وجههم إلى الجواب الذي يريده، وهو أنه خير من موسى، وعلّل ذلك الجواب بأنه عزيز مكرم فصيح، بينما موسى يمتهن نفسه بالخدمة، ولا يُفَهِّم، ولا يَفْهَم، فقال فرعون: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢) و(أمْ) هنا المنقطعة المقدّرة، بمعنى: بل، أي: بل أنا خيرٌ من هذا الذي هو فقيرٌ، وليس صاحب ملك.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥٣) أي: فهلا أثبت أنه رسول بأن يُلقى عليه أسورة من ذهب كرامة له، ودلالة على نبوّته، أو جاء الملائكة معه؛ ليكفوه الخدمة، وشاهدة له بصدقه.

قال أبو حيان: " لمّا وصف فرعون نفسه بالعزّة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى – عليه السلام، ووصفه بالضعف، وقلّة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقًا فهلا مَلّكَهُ ربُّه، وسوّره، وجعل الملائكة أنصاره." (محمّد الصابوني)

ثم ختم فرعون حديثه مع قومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [1] (غافر: ٢٩) أي: لا أرى لكم إلّا ما أراه نافعًا لنفسي، وهذا من تضليله لقومه وكذبه؛ لأنّه كان متيقنًا في صدق موسى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ (النمل: ١٤)

وقال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤) وهذا كلُّه من ترويج الخبيث فرعون، وليس العجب ممّا قاله فرعون، إنما العجب من ملئه، الذين يصفون أنفسهم بأنهم حكماء المملكة، وصنّاع قرارتها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم؟! ويبدو أن هذا كان " لفسقهم الذي هو صفة راسخة فيهم، ففسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

على كل حال: نجح الخبيث – ويا للأسف – في مقصده، فأطاعه قومه، ولم يؤمن بموسى إلّا نفرٌ قليلٌ [2]، فكان شرّ سلفًا مقدمًا لقومه إلى نار جهنم!!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

[1] – هذه المقولة هي شعار الفكر القمعي المتسلّط المستبدّ في كل زمان ومكان، والتي تفوح منها رائحة الأنا الغاشمة، والدكتاتوريّة البائسة، هي مقولة منطق من يرفض إعمال العقل، والنظر في الأمور.

[2] – وهم: مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ (القصص: ٢٠)، وماشطة ابنة فرعون.

فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ [1] (هود: ٩٦ – ٩٩)

الحاصل: أحسَّ فرعون بخطورة ثورة موسى التوحيديّة، وخشى أن تلقى قبولًا في مملكته من القبط، أو من بني إسرائيل، فاحترز أيما احتراز من انتشارها مرّة بالتقتيل، وتارة بالتضليل.

فهل نجح فرعون في ذلك؟!

هذا ما ستجيب عليه الأسطر القادمة!!

عزم فرعون على قتل موسى:

لم يَطمئنْ فرعون الطاغية إلى أن ما قام به سيخمد ثورة موسى التوحيديّة، ما دام قائدها حيًّا يسعى، ووصل لقناعة مفادها: بأن استئصال صاحبها هو الحلّ الأمثل، فقرّر فرعون قتل موسى!!

وأراد الخبيث أن يضفيَ شرعية – من قومه – على هذه الجريمة الغادرة، فعقد اجتماعًا عاجلًا، وقال فيه كلامًا يعبر عن حالته الهستيرية التي أصابته من ثبات موسى، فقال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ (غافر: ٢٦) أي: دعوني أخلصكم من موسى بقتله، ثم قال: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ (غافر: ٢٦) أي: ليعمل ما يريد، ثم علّل الخبيث هذا القرار بـ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦) ويقصد فرعون بوقوع الفساد في الدين عندما يترك الناس عبادته إلى عبادة إله موسى، وأمّا الفساد في الدنيا – في نظره – يقع عندما يجتمع الناس حول موسى، فيكثر أتّباعُ موسى فيقتلون أتّباعه، ولا يخفى مدى خبث فرعون في هذا الكلام، وكعادة فرعون – أيضًا – لم يفته أن يستهزئ بموسى قائلًا: فليدع ربَّه هل سينجيه مني؟!

---

[1] – قوله: (الورد المورود): أي: المَدْخل المدخول فيه وهو النار، وقوله: (بئس الرفد المرفود): " أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة." (عبد الرحمن السعدي :٢٠٠٢)

هل كان فرعون عاجزًا عن قتل موسى حتى قال لمن حوله: ذروني أقتل موسى؟!

قال سيد قطب: " إنَّه لا يقصد بهذا الكلام أن يتركوه؛ ليقتله، وإنما أراد منهم أن يهيئوا له المناخ العام؛ حتى إذا قتله لا يحزن الشعب على قتله، فيثأروا له، فما كان من بطانة السوء إلّا قامت بحملةٍ إعلاميّةٍ خبيثةِ الهدف منها التشكيك في رسالة موسى – عليه السلام." (سيد قطب: ١٩٨٦)

صوت حرّ يخرج من آل فرعون:

سمع قوم فرعون دعوة ملكهم الدمويّة الداعية إلى قتل موسى قتلة عدوانيّة، فتعالت نبرات حقدهم الأسود المملوءة كراهيّة، والتي أيدت قتل موسى شر قتلة غاشمة قويّة!!

وفي وسط هذا الاجتماع الفرعوني الصاخب، يخرج صوت إيماني حرّ يهتف بالحقّ فيهم بموعظة بليغة مُدَوّية، ومنذرة لهم بسوء العاقبة إن هم أصروا على كفرهم، وارتكاب جريمتهم الغاشمة الغادرة، وكان هذا الصوت هو صوت مؤمن آل فرعون، الذي سجّل القرآن موعظته الصادقة القويّة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ (غافر: ٢٨)

قال ابن كثير:" المشهور أنّ هذا الرجل المؤمن قبطيٌّ من آل فرعون وليس إسرائيليًا...، وقد كان يكتم إيمانه عن قومه، فلم يظهر إلّا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ (غافر: ٢٦)، فأخذت الرجل غضبة لله – عزّ وجلّ، وكما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ (غافر: ٢٨) أي: " كيف تقتلون رجلًا أن يقول ربّي الله، وقد أقام لكم البرهان تلو البرهان على صدق ما جاء به من الحقّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وصف القرآن لمؤمن آل فرعون:

وصف القرآن هذا الرجل بصفة عظيمة وهي الإيمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ (غافر: ٢٨)

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ (غافر: ٣٠)

وقال تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: ٣٨)

ممّا يدلُّ ذلك على كمال إيمانه، ودوامه، وثباته.

مؤمن آل فرعون يحاول منع قتل موسى:

حاول هذا المؤمن منع هذه الجريمة البشعة، قال قطب: " فها هو يفظّعُ ما هم مقدمون عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨)، فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل؟!" (سيد قطب: ١٩٨٦)

" ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾، يقولها ومعه حجّته، وفي يده برهانه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨)، يشير إلى الآيات التي عرضها موسى – عليه السلام – ورأوها، وهم فيما بينهم، وبعيدًا عن الجماهير، يصعب أن يماروا فيها." (سيد قطب: ١٩٨٦)

ويحذر هذا الرجل الناصح الأمين قومه قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (غافر: ٢٩)

فاستفتح خطابه بتذكيرهم بصلة النسب التي تربطه بهم (**يا قوم**)؛ ليكون لكلامه وقعًا في قلوبهم، ثم عدد نعم الله عليهم بأنَّهم ظاهرون الآن على أهل زمانهم، فإن ظلمتم، وتجبّرتم بالقوّة التي تفضل الله بها عليكم فمن ينصركم عندئذ من بطش الله بكم إن عذبتم عباده، وقتلتم رسوله؟!

قال ابن كثير: " يحذرهم أن يسلبوا هذا المُلك العزيز، فإنَّه ما تعرضت الدولة للدين إلّا سُلبوا مُلكهم، وذلّوا بعد عزّهم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

اشمئزاز فرعون من هذا الصوت الحرّ:

ما أن سمع فرعون هذا الصوت النشاز بالنسبة له إلّا أن تأفف منه، خاصّة أنَّه خارج من قومه، فحاول فرعون أن يخمد هذا الصوت الإيماني الحرّ، ويقمعه، فقال بحسم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ (غافر: ٢٩)

لكنّ هذا القمع الفرعوني لم يثنِ هذا الناصح الصادق عن مقاومة الطغيان والقمع، فذكرهم هذا المؤمن بما حلّ بأقوام سابقين معروفين لديهم، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ (غافر: ٣٠ – ٣١)، فألمح بطريقة ذكية أن مصيرهم سيكون نفس مصير هؤلاء الهالكين إن ساروا على خطاهم، والسعيد من وعظ بغيره.

ولمّا كان الناس دائمًا – مؤمنهم وكافرهم – مفطورين على الخوف من قوّة أكبر منهم، المؤمن يعرفها، وهي قوّة الله، أمّا الكافر وإن كانت غامضة لديه إلّا أنه يشعر بها في أعماق نفسه ويخشاها؛ لذا حرك هذا الناصح هذا الخوف الجبلي الكامن في نفوسهم من الله، وإن كانوا لا يظهرونه؛ ليثنيهم عن غيهم وبغيهم، مصوّرًا مشهدًا مهولًا ليوم القيامة حيث تنادي الملائكة الناس للحشر، وهم حفاة عراة لا ملجأ، ولا منجى من الله إلّا إليه، فما تتوقعون حالكم في هذا اليوم؟!

قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ (غافر: ٣٢ – ٣٣)

وعاتبهم على كثرة شغبِهم على أنبياء الله، فقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ

ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ (غافر: ٣٤)

وهذا العتاب وإن كان موجهًا لأسلافهم فإنَّهم مؤاخذون عليه أيضًا؛ لرضاهم به، وسيرهم به مع أنبياء زمانهم كسلفهم حذو القُذَّة بالقُذَّة، فحذّرهم أن يسلكوا نفس طريق الأسلاف مع الأنبياء!

خداع فرعون ومراوغته:

يبدو أن هذه النصيحة لم يستطع فرعون تجاهلها، فراوغ روغان الثعالب المخادعة، فطلب من وزيره هامان بناء صرح مرتفع؛ ليصعد عليه إلى السماء؛ وليطلع إلى إله موسى بزعمه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ (غافر: ٣٦ – ٣٧)

وهكذا الطغاة دومًا عندما تخرسهم الحججُ الدامغةُ، يراوغون كالثعالب المخادعة؛ كي لا يسجل الحقُّ عليهم انتصارًا، أو يكسب أنصارًا!

مؤمن آل فرعون لم يستغرب مراوغة فرعون الماكرة، وتفننه في الاستهتار والتدليس، والاستخفاف بالعقول المُغيبة فقد عايشه زمنًا!!

ثبات مؤمن آل فرعون في وجه الطاغية فرعون:

وهذا التدليس والاستخفاف بالعقول ما كان إلّا أن يزيد هذا المؤمن الناصح الصادق تصميمًا لإكمال دعوته، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ (غافر: ٣٨)

وتأمّل – يا رعاك الله: لم يجرؤ مؤمن آل فرعون أن يقول لا تتّبعوا فرعون؛ ففرعون وصل طغيانه لحدّ لا يجرؤ معه أي إنسان مهما كان أن يتفوه بهذا الكلام؛ لذا عدل عنه بدعوتهم لاتّباعه وحسب، واستخدم نفس مصطلحات فرعون مصطلح ﴿ٱلرَّشَادِ﴾، ولكن شتان بين رشاده، ورشاد فرعون.

وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣﴾ (غافر: ٤١ – ٤٣)

ثم ختم نصيحته المشفقة ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤﴾ (غافر: ٤٤)

هل قتل فرعون وزبانيته صاحب هذا الصوت الإيماني الحرّ؟

قال القرطبي: " ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ (غافر: ٤٤) يدلّ على أنهم هددوه، وأرادوا قتله، ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥﴾ (غافر: ٤٥) أي: نجّاه الله من شدائد مكرهم ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به." (القرطبي:٢٠٠٢)

فأنعم به من مؤمن ثابت!!

وإليك أهمّ ما نستفيده من هذا الصادع بقول الحقّ في وجه أعتى ظُلّام الإنسانية!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– من فقه الدعوة إلى الله الحكمة في تحيُّن الفرص واستثمارها، وقد كان مؤمن آل فرعون حكيمًا؛ حيث أخفى، وكتم إيمانه عن فرعون وقومه إلى الوقت المناسب، ومكث على هذه الحال إلى أن جاءت الفرصة، والوقت المناسب؛ ليُظهر إيمانه ويدافع عن المؤمنين، والنبي – عليه الصلاة والسلام – في بداية دعوته كانت دعوته سرًّا لمدة ثلاث سنوات؛ لأنَّ الحكمة تقتضي ذلك، ولو أظهر دعوته مباشرة لربما لم ينتشر الدِّين، وكانت المفسدة أعظمَ، وأكثر من المصلحة، ففي مثل هذه الحالات يجب مراعاة الحكمة، وعدم التسرع والعجلة، وضبط الغيْرة.

وتأمّل: في بداية الدعوة وحينما كان المؤمنون مستضعفين قلّة، ورد عن خبَّاب بن الأرت – رضي الله عنه – أنه قال: شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو

مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ **فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.**" (رواه البخاري: ١٦٩٤٣)، فالفرصة لم تكن سانحة، ولم تتحيَّن بعد، ولكن بعد سنوات قليلة من الدعوة انقلب الأمر، فرجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى مكة فاتحًا منتصرًا قويًّا.

– من صفات الداعية الدفاع عن المسلمين، والذبّ عنهم بحق؛ حيث قال الله – عز وجل – عن مؤمن آل فرعون وهو مدافع عن موسى – عليه السلام : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، فقد يسمع الداعية أو غيره من يتَّهم أهل الحقّ، فيجب عليه الدفاع عنهم، والذبّ عن أعراضهم؛ لأنَّ الدفاع عنهم دفاع عن الدِّين؛ لأنهم هم من يُبلِّغون الدِّين وأحكامه.

وقد ورد مثل ذلك في السنة، فقد بعث النبي – عليه الصلاة والسلام – عمر على الصدقة، فقيل له: منع ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعباس عمّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم، فدافع – صلى الله عليه وسلم – عن خالد، فقال: " **أمّا خالدٌ، فإنكم تظلمون خالدًا، قد احتبَسَ أدراعَهُ وأعتُدَهُ في سبيل الله**" (رواه البخاري: ١٤٦٨).

ولنتأمل هنا كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – عن القصواء، عندما كانت متجهة للحديبية، فبركت، فقال الصحابة: خلأت القصواء – أي: بركت، ولا تريد أن تتقدم، أو تمشي – فقال لهم – صلى الله عليه وسلم – مدافعًا عنها: " **ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخلقٍ، ولكن حبستها حابس الفيل.**" (رواه البخاري: ٢٧٣١)

– من وسائل الدعوة إلى الله الإقناع العقلي، فقد قال هذا الرجل المؤمن لقومه :﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾؛ أي: موسى جاء ببينات، وبراهين، وحجج عقلية يصدق بها العقل، فكيف لا تصدِّقونه، وتؤمنوا به؟!

–من وسائل الدعوة إلى الله التذكير بالنعم؛ حيث قال مؤمن آل فرعون لقومه :﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، وقد ورد في السنة أنَّ النبي – عليه الصلاة والسلام – خرج ذات يوم جائعًا، فقابل أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما، وأخرجهما الذي أخرجه، ثم ذهبا إلى أحد الصحابة، واسمه أبو الهيثم بن التيهان، فذبح لهم، ثم شربوا من الماء البارد، وأكلوا، وشبعوا، ثم قال – عليه الصلاة والسلام – في نهاية الحديث: " **هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد.**" (رواه الترمذي: (٢٣٦٩) واللفظ له، والحاكم (٧١٧٨)، والبيهقي: (٤٠٦٤))

– من وسائل الدعوة الترهيب؛ حيث قال مؤمن آل فرعون لقومه :﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، وفي ذلك تخويف لهم من عذاب الله، وبأسه، وبطشه.

– من صفات الداعية عدم اليأس من دعوة الآخرين، وتكرار دعوتهم بطرائق شتى، ووسائل مختلفة متنوعة، فقد كرَّر مؤمن آل فرعون دعوته لقومه بطرائق شتى، ووسائل متنوعة.

– من صفات بعض من يتعامل معهم الداعية الاستكبار، وعدم قبول الحقّ، وتأمّل حال مؤمن آل فرعون مع المتغطرس فرعون، ألم يقل فرعون :﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وهذا حال كل مدعو تأخذه العزة بالإثم، فيرفض الحقّ، ويعاند، ويُظهر للناس أن الحقّ معه بدون أي حجة، ولا برهان.

– من لؤم الظلمة تغرير الناس؛ قال تعالى عن فرعون :﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فأظهر فرعون نفسه في صورة الناصح المشفق الخائف على قومه، فغرَّرهم، فصدَّقوه، قال تعالى عن قومه :﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤)

– من وسائل الدعوة حُسن الخطاب، والتلطف، والرفق، واللين في القول؛ حيث كرَّر هذا المؤمن قوله : (يا قوم) ست مرّات في آيات مختلفة، وهذه الكلمة فيها لطف كبير، وشفقة عظيمة، وحبّ للآخرين ورحمة بهم، وتأمّل خاطَب بها قومه، وهم كفّار، والله – عز وجل – يقول :﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)

– الحذر من الغرور، والتكبر، والعجب بالنفس، فعندما يتملك الإنسان الغرور بنفسه، ويرى نفسه، ويغريه الشيطان، فحينئذ يحصل الهلاك، وفي هذا تحذير للداعية من سلوك هذا المسلك، فقد يدخل الشيطان على الداعية، فيجعله يتكبر، ويُعجب بنفسه بسبب علمه، أو عمله، أو حبّ الناس له، أو تأثيره فيهم، أو بكثرة عدد متابعيه، أو كثرة الحضور في المحاضرات، أو حتى في برامج التواصل الاجتماعي، أو بسبب منصبه، وماله، وجاهه، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – محذرًا من ذلك: " **ثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مُطاع، وهوىً مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه.**" **(رواه الطبراني في المعجم الأوسط: (٥٧٥٤)**، وقد حذر النبي – عليه الصلاة والسلام – صحابته الكرام بذكر قصص من أمثال المعجبين بأنفسهم، فقال: " **بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسَف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.**" (رواه البخاري: (٥٧٨٩)، ومسلم: (٢٠٨٨))، وقد حذَّر الله – عز وجل – نبيه من ذلك، فقال له :﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦)، قال الحسن البصري: "لا تَمنُن بعملك على ربك تستكثره"، وقد نهى الله – عز وجل – عن تزكية النفس، فقال :﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: ٣٢)

– من صفات الداعية التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه صغيرها وكبيرها، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون :﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٤)، وهو الوكيل سبحانه، وهو العليم، والبصير بعباده، يعلم حالهم، وما يصلحهم، وينفعهم، ويصرف عنهم ما يضرهم، ولا ينفعهم.

o o o o

قصّة بقرة بني إسرائيل

البداية:

تحكي هذه القصّة الكثير الكثير من تعنّت بني إسرائيل مع أنبيائهم، وتبرز سجيتهم الرديئة المتلكئة في تنفيذ أوامر ربّهم.

وتبدأ القصّة بسقوط قتيل بينهم [1]، فتدافعوا فيه، وكادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، ثم قرروا الاحتكام إلى نبيّهم موسى، وما أن ذهبوا إلى موسى إلّا أن أمرهم أن يذبحوا بقرة [2]!!

تَعَجبُ بني إسرائيل من طلب موسى:

تعجبَ بنو إسرائيل من طلب موسى هذا، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ (البقرة: ٦٧) أي: أتستهزئ بنا؟! فنحن نسألُك عن هذا القتيل، وأنت تقول لنا اذبحوا بقرة!

قال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة:٦٧) " فهو يلجأ إلى الله عائذًا به أن يكون من المستهزئين الجاهلين، والنبي لا يفعل ذلك." (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال القرطبي: " فالخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه – عليه السلام." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تنبيه: قال القرطبي: " في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة:٦٧) دليل على منع الاستهزاء بدين الله، ودين المسلمين، ومن يجب تعظيمه، وأنّ ذلك جهل، وصاحبه مستحقّ للوعيد." (القرطبي: ٢٠٠٢)

---

[1] - ذكرت روايات تحكي سبب سقوط هذا القتيل، ويبدو أنها مأخوذة من الإسرائيليات؛ لذا أعرضنا عن ذكرها صفحًا؛ لعدم تحقّق أي فائدة حقيقيّة من ذكرها.

[2] – ولعلّ سبب اختيار موسى ذبح البقرة من بين سائر الحيوانات؛ لتهوين شأن الحيوان الذي سيعظّمونه ويعبدونه ويحبّونه.

وقال الصابوني: " وقد منع المحقّقون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزاح، والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن للتدبر، والخشوع لا للتسلية، والتفكه، والمزاح." (محمّد الصابوني)

تساؤل بني إسرائيل عن صفات البقرة:

لمّا رأى بنو إسرائيل الجدَّ في موسى طلبوا منه أن يسأل ربّه عن حالها، وصفتها، وربما سبب أسئلتهم هذه استبعادهم أن تكون هذه البقرة التي ستذبح بأيديهم، ويضرب بها قتيلهم ليعود إلى الحياة، أن تكون بقرة عادية، وكأنهم لقلّة علمهم، وفهمهم توقعوا أن تكون بقرة غير عادية، ولها صفات غريبة غير طبيعيّة، فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة: ٦٨)

يقول سيد قطب: " والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكّهم أن يكون موسى هازئًا فيما أنهى إليهم! فهم أوّلًا: يقولون: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (البقرة: ٦٨) وكأنما هو ربّه وحده لا ربّهم كذلك! وكأنّ المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربّه!" (سيد قطب: ١٩٨٦)

" وهم ثانياً: يطلبون منه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم (**ما هي**)؟ والسؤال عن الماهيّة في هذا المقام، وإن كان المقصود بيان الصفة إنكار واستهزاء ... ما هي؟ إنها بقرة، وقد قال لهم هذا من أوّل الأمر بلا تحديد لصفة، ولا سمة، بقرة وكفى." (سيد قطب:١٩٨٦)

موسى يجيب عن التساؤل المُتعنّت الأوّل من بني إسرائيل:

على ما في سؤالهم السابق هذا من التعنّت وسوء الأدب ما فيه إلّا أن موسى أجابَهم: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾ (البقرة: ٦٨) أي لا هي كبيرة في السنّ، ولا صغيرة ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨) أي متوسطة بين المسنّة والصغيرة.

وتأمّل – يا رعاك الله: نكّر موسى كلمة (بقرة) تنزيلًا لهم منزلة المنكرين لتعنّتهم في السؤال، ومحاولتهم التنصّل ممّا أمروا به!

وتأمّل ثانية: لم يقل موسى من أوّل الأمر: إنها بقرة عوان، بل جاء بالوصفين السابقين: لا فارض، ولا بكر، للتعريض بغباوتهم، والتلميح بقلّة فهمهم للأساليب الموجزة، وتماشيًا من نفسيّتهم المتلكئة.

ثم حسن بعد ذلك أن يقول: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ (البقرة: ٦٨) أي: افعلوا ما أمركم الله به، واحذروا من تشدّدكم هذا حتى لا يشدّد الله عليكم.

استمرار بني إسرائيل في طرح الأسئلة المتعنّتة:

كان من المفترض أن يمتثل بنو إسرائيل أمر ربّهم، ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء جبلة فيهم لا تفارقهم، فتعنّتوا أكثر، وزادوا في أسئلتهم أكثر وأكثر، فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ (البقرة: ٦٩) أي: قالوا ما لونها أبيض، أم أسود، أم غير ذلك؟!

أجابهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ (البقرة: ٦٩) أي شديد الصفرة، قال ابن جرير: " الفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، وهو شدّتُه، وصفاؤه." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

قال الرازي: " فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلتُ: الفائدة فيه التوكيد؛ لأنّ اللون اسم الهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه." (الفخر الرازي)

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٩) أي تعجبهم.

استمرار بني إسرائيل في طرح المزيد من الأسئلة المتعنّتة:

قد كان في أسئلتهم السابقة كفاية، وفي إجاباتها حدًّا ونهاية، ولكنهم لا يفتأون يتساءلون للمرّة الثالثة على التوالي: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة: ٧٠)، وكأنهم يقولون له: إن في أجوبتك السابقة تقصيرًا يشقُّ معه التمييز، فسل ربّك ليبيّن حالها، واعتذروا عن ذلك التلكؤ بعذر باهت، وهو: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ (البقرة: ٧٠) أي: إن البقر الموصوف لنا كونه عوانًا، وبالصفرة الفاقعة كثير.

واستثنوا، وقالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧٠) أي: "سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله." (محمّد الصابوني)

موسى لا يملّ من الإجابة عن أسئلتهم المتعنّتة:

وإن تعجب فعجب لجاجهم، وعنادهم هذا، ففي كل مرّة كان يجيبهم موسى: " **إنه يقول**"؛ ليشعرهم أنه أمر إلهي متحتم عليهم، وواجب تنفيذه! ومع ذلك كانوا يتلكؤون، ويتعنّتون!

ولله دَرُّك يا موسى صابرًا على هذا اللجاج والعناد، يسألونك وتجيبهم، يتعنّتون وتصبر عليهم، يتلكؤون ولا تعجل عليهم – فصلى الله عليك وسلم تسليمًا كثيرًا.

وسبب إصرار موسى – عليه السلام – على إجابتهم كان حبّ الخير لهم، ومحض النصح إليهم.

فها هو موسى يجيب: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ (البقرة: ٧١) أي: ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ (البقرة: ٧١) أي: سليمةٌ من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧١) أي: ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها، فهي صفراء كلها.

إذعان بني إسرائيل لموسى:

لمّا أوصد موسى كلّ أبواب اللجاج والتلكؤ، أذعنوا قائلين: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ (البقرة: ٧١) أي: " الآن بيّنتها لنا بيانًا شافيًا لا غموض فيه ولا لبس." (محمّد الصابوني)

وحتى في إذعانهم هذا كانوا لا يزالون قلقين متلكئين، قال ابن القيم: " فإن أرادوا بذلك إنك لم تأت بالحقّ قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردّةٌ، وكفرٌ ظاهرٌ، وإن أرادوا أنك الآن بيّنت لنا البيان التامّ في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

البحث عن البقرة:

بعدما استنفد بنو إسرائيل أسئلتهم المتعنّتة، راحوا ينقبون عن هذه البقرة غير العادية، وعثروا عليها بعد جهد جهيد، وبحث طويل، وقد رويت أخبار وآثار حول بحث بني إسرائيل عن البقرة؛ حتى عثورهم عليها، ولكنها أخبار مأخوذة من الإسرائيليات؛ لذا ضربنا عن ذكرها صفحًا.

فذبحوها، وما كادوا يفعلون:

قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧١) أي: ذبح قوم موسى البقرة الموصوفة لهم بعدما قاربوا أن يتركوا ذبحها، شكًّا منهم في صحة ما أخبر به نبيّهم.

قال ابن كثير: " قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا – ولم يكن ذلك الذي أرادوا – لأنّهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلّا بعد هذا الجهد، وفي هذا ذمّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضُهم إلّا التعنّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها." (ابن كثير: ١٩٨٧)

تحقّق المعجزة:

ذبح بنو إسرائيل البقرة مكرهين، وضربوا بها قتيلهم مدفوعين، وما أن ضربوا بها قتيلهم؛ حتى قام يشهد على قاتله، ثم خرّ ميتًا، قال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ (البقرة: ٧٣) أي: " فقلنا اضربوا هذا القتيل ببعض البقرة المذبوحة، فضربوه ببعضها، فصار القتيل حيًّا، فأخبر عن قاتله." (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

وهذا من رحمة الله تعالى بهم أن جعل الشاهد في هذه القضية هو القتيل نفسه؛ لأنّ قوم كهؤلاء ما كانوا ليرضوا بشاهد غيره! ولن يقنعهم دليل أوضح منه!!

ولم يُحدّد لهم موسى الجزء المضروب منها، فالمعجزة متحقّقة بأي جزء منها!

وسبحان الله! كان ذبح بقرة سببًا في إحياء حجّة وبرهان.

استمرار بني إسرائيل في غياهب لجاجهم رغم المعجزة:

شاهد بنو إسرائيل هذه المعجزة الباهرة، والتي تحار لها العقول، وتتعجب منها الأذهان، فهل أذهبت هذه المعجزة غيابة اللجاج، والتلكؤ عنهم؟!

لا – ويا للأسف – لم تذهب هذه المعجزة غياهب ظلمات اللجاج والعناد عنهم، وصارت قلوب بني إسرائيل بعد مشاهدتها هذه المعجزة الباهرة قاسية حَرِجة كالحجارة بل أشدّ لا تلين ولا يصلها أي خير!!

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤)

ما وجه الموازنة بين قلوب بني إسرائيل والحجارة؟

قال أبو السعود: " القسوة عبارة عن الغلظة، والجفاء، والصلابة كما في الحجر، فاستعير لِنُبُوّ قلوبهم عن الأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال، وتلين بها الصخور." (محمّد الصابوني)

ثم ختم الله ما حكاه عن قصّة بقرة إسرائيل بتهديد شديد هو: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤)

وهكذا انتهت هذه القصّة حاكية فصلًا من فصول تلكؤ بني إسرائيل، ولجاجهم، والتوائهم وفسقهم، وشغبهم على أنبيائهم!! فعليهم من الله ما يستحقون!!

قال ابن كثير: " وهذه القصّة تضمّنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ونختم هذا المشهد المتلكئ العنيد من بني إسرائيل بهذا الفوائد منه!

الفوائد المستفادة من القصّة:

- يجب على الإنسان ألّا يكثر الكلام فيما لا يفيد، ولا ينفع.

-أظهرت القصّة عجرفة بني إسرائيل، وسوء أخلاقهم، فلو أن بني اسرائيل ذبحوا أي بقرة دون أن يسألوا عن مواصفاتها لكان أيسر لهم.

-أظهرت هذه القصة جانب من جوانب ضعف الايمان عند بني اسرائيل، ألّا هو التلكؤ في تنفيذ أوامر الله؛ لذا حذرنا الشرع الحنيف من خطورة التلكؤ في تنفيذ الأوامر؛ لأن ذلك قد يقود الإنسان إلى مرحلة الابتعاد التامّ عن الايمان.
-الواجب على المسلم المبادرة إلى امتثال أوامر الله، والندب للأخذ بالمتيسر، وعدم الاعتراض على ما أمر الله، فإن بني اسرائيل لما اعترضوا على نبيهم شدد الله عليهم.

لما قال بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فقال نبي الله موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يؤخذ من هذا فائدة تربوية، وهي: أن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأمّا العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، لا الاستهزاء بهم.
-في قول موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فائدة مهمة حميدة أخرى، وهي ضرورة دفاع الداعية عن نفسه إذا اتّهم بشيءٍ باطل، وتأمّل لمّا كان الهزء في أثناء تبليغ أمر الله تعالى جهلٌ وسفه نفاه موسى عن نفسه، وأكد أنه جادّ غاية التأكيد، وقال: أعوذ بالله (أي: ألتجئ وأعتصم به) أن أكون من الجاهلين الذين يتقدمون في الأمور بغير علم، فلما رموا موسى بالسفه والجهالة، دافع موسى – عليه السلام – عن نفسه، وقال: ألتجئ إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس.
- الاشتباه والالتباس نتيجة طبيعية للحيرة والتردد، وهي ضريبة يدفعها كل من يترك التشريع الرباني الميسر، ويذهب للتشديد والتعقيد، مثل: الموسوسين، فالشخص الموسوس الذي تقول له: توضأ بهذه الكيفية، ترى أنه يأتي لك بأشياء شديدة، ويبحث عمّا لا يلزم شرعاً؛ ولذلك ترى الموسوس يعيش في عذاب، وحيرة، وهمّ، وغمّ؛ بسبب تشديده على نفسه.

التباطؤ في تنفيذ أوامر الله تعالى طبيعة اليهود والمنافقين، أمّا نفس المؤمن فيها شوقٌ، ولهفة، وهمة، وحيوية للتنفيذ؛ لأن هذه الأوامر هي أوامر الله تعالى، فالمؤمن

يتحمس لتنفيذ أوامر الله بطواعية، وسرور نفس، ومسارعة، واستسلام، لا اعتراض ولا تلكؤ، ولكن المنافق يتكاسل، ويتباطأ، ويتحايل، ويتهرب، فإذا فشلت المحاولات نفذ مضطرًّا مكرهاً مرغماً ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، فهو كطبائع اليهود متلكئ متباطئ، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾!

-أهمية الاستثناء – وهي قول: (إن شاء الله) – في تيسير الأمور وحصول مراد العبد، قال الله – تعالى – حكاية عن بني اسرائيل في قصة البقرة ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾!

o o o o

قصّة عجل السامري

البداية:

ذهب موسى لميقات الله تعالى، واستخلف على شعب إسرائيل أخاه هارون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢) أي: قال موسى لهارون: اخلفني في بني إسرائيل إلى رجوعي، وأصلح أمرهم، واحملهم على طاعة الله، واحذر من طريق المفسدين أن تسلكه مثلهم، وكأن موسى استشرف ما سيقع في نفوس قومه!

وما هذا الذي وقع في نفوسهم؟! هذا ما ستجيب عنه الأسطر القادمة!!

فتنة السامري:

قبل أن ينصرفَ موسى من الميقات أخبره سبحانه بما حدث في قومه من الفتنة، وإضلال السامري لهم بعبادة العجل، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٥) أي: قال الله تعالى لموسى: إنّا قد ابتلينا قومك بعد فراقك إياهم بعبادة العجل، وإن السامري قد أضلّهم.

من هذا السامري؟

ذُكر: أن السامري هذا كان شخصًا من ضلّال بني إسرائيل، وقيل: كان من زعماء بني إسرائيل، وقيل: لم يكن من بني إسرائيل بل من قوم يعبدون البقر، وقيل: غير ذلك، وكل هذه الأقوال مظنونةٌ، وغير محقّقة، على كل حال فتن السامري بني إسرائيل، وكيف حدث ذلك؟!

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ (الأعراف: ١٤٨)، يذكر الله تعالى ما وقع في بني إسرائيل من أمر عجيب

حينما ذهب موسى – عليه السلام – لميقات ربّه، عمد رجل يقال له السامري، فأخذ الحُلي الذي استعاره بنو إسرائيل من قوم فرعون [1]، فصاغ منه عجلًا.

هل تحوّل هذا العجل إلى عجل حقيقي؟

ذكر أن العجل تحوّل إلى عجل حقيقي من دم، ولحم، وعصب، ولكن الصواب: لم يكن هذا العجل عجلًا حقيقيًّا، بل كان تمثالًا جمادًا على شكل عجل، قال ابن كثير: " وكانت الريح إذا دخلتْ من دُبرِهِ خرجت من فمِهِ، فيَخورُ كما تَخور البقرةُ، فيرقصون حوله ويفرحون." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

عبادة العجل:

غرر السامري بني إسرائيل قائلًا لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ويا للأسف صَدَّقَ جزءٌ كبيرٌ من بني إسرائيل السامري، فعبدوا هذا العجل، بل أحبّوه حبًّا عظيمًا لم يحبّوا شيئًا مثله قطّ، قال هراس: " فانظر إلى أي حدّ بلغ هؤلاء القوم من الحمق والسفاهة؟! إنّ هذا العجل قد صنع أمامهم من الحُلي التي كانت لديهم، فلو كانت عندهم مَسْكة من عقل لمّا انحدروا إلى عبادته، وهم يرون أنه لا يكلمهم، ولا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضررًا، ولا نفعًا، ولكن إلفهم بالوثنيّة في مصر أعماهم، وكانت ملكة التقليد للمصريين لا تزال متمكّنة من نفوسهم، وقد رأينا كيف أنهم حينما عبروا البحر بتلك الصور الخارقة لم يلبثوا أن قالوا لموسى حين مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ (الأعراف: ١٣٨)" (محمّد هراس)

هكذا استخف السامريُّ بعقول بني إسرائيل، فصدّقوه حتى أنهم قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (طه: ٨٨) أي: " فنسى موسى ربّه عندنا، وذهب يتطلبه وهو ههنا!" (ابن كثير: ٢٠٠٢)

---

[1] - **ما قصّة هذا الحلي؟** ذُكر: أن نساء بني إسرائيل طَلَبْنَ من نساء القبط ليلة الهجرة من مصر أن يعيرهنَّ من حليهن بذريعة أن الليلة عيد بني إسرائيل، ووعدهنَّ بإعادته، فلمّا وقعت الهجرة أخذنه معهن، وكأن بني إسرائيل تلاوموا فيما بينهم على ذلك، فكان ما صار، ويا سخف عقولهم تورعوا عن الأمر الحقير من حمل زينة القبط، وفعلوا الأمر الخطير من عبادة العجل، **وهذه الرواية من الإسرائيليّات، والله أعلم بصحتها.**

قال ابن القيم: " ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى إلى الشرك ...، ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ضالًّا مخطئًا، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾" (ابن القيم: ٢٠٠٢)

بيان بطلان عبادة العجل:

سخّف تعالى عملهم هذا موضحًا بطلان ما ذهبوا إليه من إلهيّة هذا العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (طه: ٨٩) أي: أفلا يعلمون أن هذا العجل يعجز أن يردّ لهم جوابًا، ولا يستطيع أن يدفع عنه وعنهم ضررًا، ولا يقدر على أن يجلب لهم نفعًا، فكيف يكون إلهًا؟! والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨) فوصف سبحانه في هذه الآية عبدة العجل بأنهم ظالمون، فمن الذي ظلموه؟ ظلموا أنفسهم حينما وضعوا الأشياء في غير موضعها، وأعظم ذلك كانت عبادتهم للعجل.

وتأمّل – وفقك الله للحق: جاء التعبير القرآني بلفظ (كانوا ظالمين) المفيد للدوام، والاستمرار، وللإشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم، قبل هذا الاتّخاذ وبعده، وإن كان قد صدر عنهم بغير طلب منهم، إلّا أنهم قد سبق أن قالوا لنبيّهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)

وقد وسمهم تعالى بالظلم في موضع آخر: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١) وهذا الذمّ وإن كان موجه إلى اليهود الذين عاصروا النبي إلّا أنه فيه ذمّ لفعل أسلافهم.

وقد يقال: لِمَ يذمّ الخلف بفعل السلف؟

يذمّ الخلف بفعل السلف؛ لأنهم يسيرون على نهج سلفهم حذو القُذّة بالقُذّة، فذمّهم الله لمخالفتهم للرسول، ومحذرًا أن يحلّ بهم ما حلّ بأسلافهم.

هارون يمحض قومه من بني إسرائيل النصح:

حدث كل هذا في غياب موسى، وقيام هارون بأمرهم، فلما رأى هارون هذا المنكر الفظيع، وهذا الكفر البواح الخطير، نهض – عليه السلام – يمحضهم النصح، ويحذّرهم عاقبة الكفر قائلًا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ (طه: ٩٠) أي: قال هارون: يا قوم، إنما اختبرتم بهذا العجل، وإن ربّكم الرحمن، ولا غيره يستحقّ للعبادة.

وتأمّل – يا رعاك الله: جمع هارون بين اللفظين الكريمين (الربّ والرحمن) لجذبهم للحقّ أوّلًا، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل توبتهم البر الرحيم ثانيًا!

بنو إسرائيل يتملصون من نصح هارون لهم:

لم يستمع هؤلاء الفجرة الأغبياء الكفرة عبدة العجل والأوهام إلى هارون، وخالفوه، وحاربوه، بل كادوا أن يقتلوه، فحبّ العجل قد تمكن من قلوبهم.

قال قطب: " ما كاد بنو إسرائيل يرون عجل من ذهب يخور؛ حتى نسوا ربّهم الذي أنقذهم من أرض الذلّ، وعكفوا على عجل الذهب، وفي بلاهة فكر، وبلادة روح قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (طه: ٨٨)، وراح موسى يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا، وقد نسي موسى الطريق إلى ربّه، وضلَّ عنه، وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتّهامهم لنبيّهم بأنه غير موصول بربّه؛ حتى ليدخل الطريق إليه، فلا يهتدي، ولا ربّه يهديه، وهذا العجل لم يكن حيًّا يسمع قولهم، ويستجيب نداءهم؛ لأنّه جسد لا حياة فيه، فهو في درجة أقل من درجة الحيوانيّة، ولقد نصحهم هارون، ولكنهم بدلًا من الاستجابة التووا، وتملصوا من نصحه." (سيد قطب: ١٩٨٦)

عودة موسى وتوبيخه لعبدة العجل:

وتأخذ القصّة منحًى جديدًا بعودة موسى – عليه السلام، وهو الذي كان يعرف خبرهم، فلمّا رأى موسى ما رأى تأسف غاية الأسف على مجهوده الضائع في غرس التوحيد في نفوسهم، وحزن حزنًا عميقًا على اتّباعهم كل ناعق بتخاريف وأوهام!!

وقال موبخًا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ (طه: ٨٦) أي: ألم يعدكم ربّكم بإنزال التوراة والتي فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ

ٱلۡعَهۡدُ﴾ (طه: ٨٦) أي: أطال عليكم الزمن حتى نسيتم هذا العهد؟ ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ (طه: ٨٦) أي: أم أردتم بصنيعكم هذا أن يحلّ عليكم سخط الجبّار وانتقامه، فأخلفتم موعدي؟

قال أبو حيان: " وكانوا قد وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى – عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبدًا، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل." (محمّد الصابوني)

وقال موسى: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: قال موسى لقومه: بئسما فعلتم بعد غيبتي عنكم حيث عبدتم العجل! ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: " أعجلتم عن أمر ربّكم وهو انتظار موسى حين يرجع من الطور؟ والاستفهام للإنكار" (محمّد الصابوني)

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: ألقى موسى الألواح لِما أصابَه من شدّة الأسف والغضب، وقد ألقاها غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل [1].

اعتذار عبدة العجل البارد لموسى:

عاين عبدة العجل من موسى شدّة الغضب عليهم، وحنقه الشديد بسبب فعلهم، فاعتذروا إليه بما هو غير صحيح، فقالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٧)

قال ابن كثير: " اعتذروا بالعذر البارد، يخبرونه عن تَورعهم عمّا كان في أيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خروجهم من مصر، ﴿**فَقَذَفۡنَٰهَا**﴾ أي ألقيناها عنّا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

---

[1] – عندما أخبر الله – عزَّ وجلَّ – موسى أن قومه فتنوا بعده، وعبدوا العجل لم يلق الألواح، بينما لما رآهم، وعاينهم ألقى الألواح، فليس المعاين كالمخبر.

تعنيف موسى لأخيه هارون:

توجه موسى إلى أخيه هارون معنفًا آخذًا شعره بيمينه، ولحيته بيساره يجّره إليه قائلًا: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ (طه: ٩٢ – ٩٣)

وسبب لوم موسى لأخيه هارون، وتعنيفه له كان بسبب أمر قد ظنَّه موسى أن هارون قد ارتكبه، فما هذا الذي ظنَّه موسى أنه معصية من هارون؟

اختلف المفسرون فيه، والأقرب أنه: عدم سير هارون بمَنْ أطاعه في أثر موسى على ما كان عهده إليه؟

دفاع هارون عن نفسه:

ولمّا هارون قد اجتهد في اتّباع وصية موسى، ولم يقصرّ، فقد دافع هارون عن نفسه قائلًا: ﴿يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٩٤) أي: خفت يا ابن أمَّ، أن أسير بمَنْ أطاعني على أثرك، وأخلف عبدة العجل، فتقول لي قد فرّقت شمل بني إسرائيل ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ (طه: ٩٤) أي: لم تحفظ قولي لك.

وقال أيضًا: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: يا ابن أمّ، لا تُسئ إليّ حتى لا يُسرّ الأعداء بي، ويشمتوا بإهانتك إليّ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: ولا تجعلني في عداد الظالمين من عبدة العجل بالمؤاخذة، أو النسبة إلى التقصير.

هارون هو شقيق موسى لأبيه وأمه، فَلِمَ قال: " يا ابن أمَّ "، ولم يقل: يا ابن أب؟

قال هارون: يا ابن أمّ؛ وذلك ليكونَ خطابُه أرقَّ وألطف عند أخيه، واستعطافًا له على نفسه برحم الأمّ، وإلّا فهو شقيق موسى من أبيه وأمه.

براءة ساحة هارون من تهمة التقصير:

يبدو أن موسى قد شعر بما قاساه أخوه هارون من عناد هؤلاء الكفرة المجرمين، وتيقن من براءة ساحة أخيه هارون من تهمة التقصير في نهيهم أو الإنكار عليهم، فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥١) أي: " اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنّي ظننته مقصرًا في الإنكار عليهم، وإن لم يقع منه تقصيرًا، أي اغفر لأخي إن قصّر." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال الزمخشري: " استغفر لنفسه ممّا فرط منه إلى أخيه، ولأخيه ممّا عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة، وطلب ألّا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة." (محمّد الصابوني)

ولم يعتب الله عليه في جرّه هارون، وقبلها إلقاء الألواح؛ لأنّه حمله على ذلك الغضب لله تعالى.

غضب موسى على السامري:

أقبل موسى على رأس الفتنة السامري مغاضبًا حانقًا، وهو يقول: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ (طه: ٩٥) أي: ما حملك على ما صنعت؟! وغرض موسى من هذا السؤال الإنكار الشديد!

فما كان من هذا المجرم السامري إلّا أن أقرَّ أمام موسى بجريمة إغوائه بني إسرائيل، فقال: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾[1] (طه: ٩٦)، ويبدو أنَّ الذي شجع السامري على ذلك ما قد لاحظه من انجذاب شعب بني إسرائيل إلى الوثنيّة، وذلك عندما قالوا

[1] – يورد المفسرون هنا: أن السامري بعد أن صاغ عجله ألقى عليه حفنة تراب قد أخذها من أثر فرس جبريل حينما رآه يوم غرق فرعون، فلمّا ألقاها على عجله خار كما يخور العجل الحقيقي، وهذا الكلام به نكارة واضحة، وغرابة عجيبة؛ لأنّه يرسخ كرامات لولي الشيطان السامري، ويمنحه كرامة، وهو لا كرامة له، فيجب أن تنزه الآية عن ذلك، والله أعلى وأعلم.

لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ (الأعراف: ١٣٨) فسولت له نفسه صنع هذا العجل!

عقوبة السامري:

ما كانت جريمة كهذه أن تمرَّ مرّ الكرام دون عقاب لداعيها ومتبعيها، فكان عقاب داعيها السامري عقوبتين في الدنيا والآخرة، أمّا عقوبة الدنيا كانت النفي له، والطرد، والأمر بعدم مخالطته، وعدم تكليمه، فقد دعا موسى عليه: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ (طه: ٩٧) أي: اذهب من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ (طه: ٩٧) أي: إذا اقترب منك أحد صرخت: لا تمسّني لا تقترب مني، فكما مسست ما لا يجوز لك مسّه، لن تمسّ بعد ذلك ما كان يجوز لك مسّه جزاء وفاقًا.

قال القرطبي: " وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي، وهجرانهم، وألّا يخالطوا، وقد فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك بكعب بن مالك، والثلاثة الذين خلفوا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

أمّا العقاب الأُخروي: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ (طه: ٩٧) أي: عذابك في الآخرة متحقّق، ولن يغيب عنك.

عقوبة عبدة العجل:

أمّا عبدة العجل كان عقابهم في الدنيا أن غضب الله عليهم بتعجيله عذابهم، وألبسهم الذلة والهوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٢)

قال ابن جرير: " قد قرأ أبو قلابة هذه الآية ...، قال هي – واللهِ – لكل مفتر إلى يوم القيامة." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

ندم عبدة العجل وتوبتهم:

شعر عبدةُ العجل بخطأ فعلهم، وأيقنوا بتغرير السامري بهم، فَسُقِطَ في أيديهم، وندموا وحين مندم، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٩) قال ابن كثير: " وهذا اعتراف منهم بذنبهم، والتجاء إلى الله – عزّ وجلّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ثم أخبر الله – تعالى – عن حلمه، ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأعراف: ١٥٣)

ولم يقبل الله توبة عابدي العجل إلّا بالقتل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)

فجعل الله توبتهم على لسان نبيّهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ذكر المفسرون: أخذ بنو إسرائيل السيوف، والخناجر، وأصابتهم ظلمة شديدة، حتى لا يرى القريب قريبه، فحصدوا بعضهم حصدًا، ولمّا انجلت الظلمة عنهم، رأوا سبعين ألف قتيل! فكان كل من قتل منهم كانت له توبة، وكذلك كل من بقي كانت له توبة!

وهذه الرواية غريبة جدًّا، والصواب الصحيح: أن الله جعل توبتهم على لسان نبيّهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ولكن الله البرّ الرحيم عفا عنهم، ورفع عنهم عقوبتهم.

وماذا فعل موسى بالعجل؟

حرّقه موسى تحريقًا، وفرّقه في اليم تفريقًا، مبالغة في نزع أي تلق به في نفوس بني إسرائيل ولو بسيطًا، ثم قرّر الحقيقة الثابتة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ (طه: ٩٨)

هكذا انتهت قصّة عجل السامري بإعلان التوحيد الخالص لله تعالى!

ونصل الآن إلى زبدة القصّة ومع فوائدها السنية!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– الورع الخالص عملة نادرة [1]، وأصحابه أقل من القليل، وهم الورعون في الجليل، والحقير، فلا يصيبهم ما يصيب الكثيرون الذين يدعون الورع، فيتحرزون في الأمور التافهة، ويتركون الأمور الجليلة.

قال ابن الجوزي: " رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل، ويرجئون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول ذكرها، من حفظ فروع، وتضييع أصول." (ابن الجوزي: ١٩٩٩)

ومن هذا القبيل: تورع بني إسرائيل من حمل حُلي القبط، وعدم تورعهم من عبادة العجل!

ومنه سؤال أهل العراق لابن عمر – رضى الله عنهما – حينما سألوه: إذا أصاب الثوب دم بعوضة فهل تصحّ الصلاة فيه؟!

فقال: " انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (يريد الحسين) وهم يسألون عن دم البعوضة." (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال ابن الجوزي: " فالله الله في تضيع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى؛ فإنه إن أهملت ماشية نفشت في زروع التقى، وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة، فإن استوثق منه ضابطه كفّه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه، فلم تقاوم السلسلة، فأفلت؟

على إن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط، فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه، وبمن يقوى عليه." (ابن الجوزي: ١٩٩٩)

---

[1] – قال السمرقندي: الورع الخالص هو أن يكفّ (المسلم) بصره عن الحرام، ويكفّ لسانه عن الكذب، والغيبة، ويكفّ جميع أعضائه، وجميع جوارحه عن الحرام." (عبد الملك القاسم)

– إن الله إذا أراد ضلالة أحد غشي على بصره، وحرمه من استعمال عقله، وإلّا فإنه من المحال أن يقال: إن قوماً ينجيهم الله، ويرون البحر يبساً، وتمشي أقدامهم عليه، ثم بعد هذا كله يأتون إلى عجل له خوار يعبدونه من دون الله، هذا من أعظم الدلائل على أن المسألة لا ترجع إلى العقل، وإنما هي هداية من الله، ونور يضعه الله – جل وعلا – في قلب من يشاء.

– ينصر الله دينه بأناس تختلف مشاربهم وقدراتهم، فموسى – عليه السلام – فيه الغضب والحدّة، وقد نفعت هذه الحدّة الدين نفعاً عظيماً، وهارون – عليه السلام – كان فيه شيء من اللين والرفق، وقد نفعت هذه الصفات الدين – أيضًا – نفعاً عظيماً، وقل مثل ذلك في الصديق والفاروق – رضي الله تعالى عنهما، فإن الصديق كان فيه لين، والفاروق كان فيه شدّة.

والمقصود :عندما توازن بين شخصين يعملان لله، فلا تنظر من زاوية ضيقة، وتقول: إن فلاناً قوي في ذات الله جبّار، وتتّهم الآخر بالضعف، لأن هذا الدين ينصر بالشخص الضعيف كما ينصر بالشخص القوي، فالدين أحياناً يحتاج إلى الحدّة والغضب، وأحياناً يحتاج إلى الحلم واللين، وأحياناً يحتاج إلى دعاء ذلك الرجل العاجز، وأحياناً يحتاج إلى حلم الحليم، وأحياناً يحتاج إلى استنباط الفقيه، فالدين من حيث الجملة ينصره الله – جل وعلا – بهؤلاء كلهم، كما نصر الله دينه بنبييه موسى وهارون رغم اختلاف شخصيتهما اختلافاً كثيراً.

– إن الذنوب والخطايا التي تقع منك – ولا بدّ منها – احذر أن ينتهزها أحد فيك، فيوظفك فيما يشاء، من باب أن هذا التوظيف كفارة لك وتوبة، لا! إنما يجب أن تعلم أن الذنوب والمعاصي ليس لها إلا التوبة، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه:٨٢)

– قول مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨) يذكرنا بأبي بكر الصديق، فعن عروة بن الزبير قال: " سألت ابن عمرو بن العاص بأنّ يخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون بالنبي – صلى الله عليه وسلم، فقال بينما

النبي – صلى الله عليه وسلم – يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي – صلى الله عليه وسلم، وقال:﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨)" (ابن كثير:٢٠٠٢)

قال الصلابي: " علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد قام خطيبًا، وقال: " يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما أنا ما بارزني أحد إلّا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم؛ لئلا يهوي عليه أحد من المشركين؟

فوالله ما دنا منه أحد إلّا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله – صلى الله عليه وسلم، لا يهوي إليه أحد إلا أهوي إليه، فهذا أشجع الناس، وقال " لقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وأخذته قريش، فهذا يحادده، وهذا يتلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دنا منه أحد إلّا أبو بكر يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! ثم رفع علي بردة كانت عليه، فبكى؛ حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أناشدكم الله أمؤمن آل فرعون خيرًا أم هو؟

فسكت القوم، فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، وذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه." (علي الصلابي:٢٠٠٨)

o o o o

قصّة موسى مع الخَضِر - عليهما السلام -

البداية:

قصَّ القرآن علينا قصّة بديعة بها حكم مفيدة، إنها قصّة موسى مع الخَضِر.

فمن الخَضِر؟

اختلف العلماء في الخضِر على قولين: القول الأوّل: الخَضِرُ نبيٌّ، القول الثاني: الخَضِرُ رجلٌ صالحٌ.

وأكثر أهل العلم أنه نبيٌّ، وهو الصحيح.

هل الخَضِر مازال حيًّا حتى الآن؟

النووي، وابن الصلاح قالا إنه حيٌّ، وذهب البخاري، وإبراهيم الحربي، وغيرهما إلى أنه مات، وهذا هو الصحيح إن شاء الله؛ وذلك لما يأتي:

قال صلى الله عليه وسلم: " أرأيتُكم ليلتُكم هذه، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ منها لا يبقى من هو على ظهرِ الأرضِ أحدٌ." (رواه البخاري: (٦٠١)، ومسلم: (٢٣٥٧) باختلاف يسير، والنسائي: (٥٨٧١) واللفظ له)، **وقوله – صلى الله عليه وسلم – في يوم بدر: " اللهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلكَ هذه العصابةَ من أهلِ الإسلامِ فلا تعبدُ في الأرضِ أبدًا."** (رواه مسلم: (١٧٦٣)، وأحمد: (٢٠٨) باختلاف يسير)، قال العدوي: فلو كان الخَضِر حيًّا موجودًا لمّا صحَّ هذا النفي." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

وقال العدوي: " ولم يذكر من ذهب إلى أنه حيٌّ شيئًا صحيحًا ثابتًا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وجلّ ما ذكروه أحاديث ضعيفة أو حكايات عن السلف لا تقوم بها حجّة، وركزوا اهتماماتهم على تفنيد أدلة من قال إنه مات." (مصطفى العدوي بتصرف: ٢٠٠٢)

بداية القصّة:

تبدأ القصة عندما " **قام موسى النبيُّ خطيبًا في بني إسرائيلَ فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ اللهُ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فقال له: فأوحى اللهَ إليه أنَّ**

عبدًا من عبادي بمجمعِ البحرينِ هو أعلمُ منكَ." (رواه البخاري:(٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

ومن هنا تبدأ القصّة:

حيث تاقت نفسُ موسى بعد أن أخبره تعالى بذلك إلى لقاء هذا العبد الصالح العالم، فقال لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ (الكهف: ٦٠) أي: قال موسى لفتاه يوشع بن نون [١] لا أزال ماشيًا حتى أبلغ مجمع البحرين [٢]، للقاء هذا العبد الصالح، وإن كلفني ذلك أن أسير زمنًا طويلًا؛ حتى أصل إلى هذا المكان.

وتأمّل – وفقك الله للحقّ: موسى كليم الله، وهو النبي المجتبى، والرسول المصطفى، وأحد أولي العزم من الرسل، وثالث الخلق فضلًا بعد محمّد وإبراهيم – عليهم السلام، لمّا سمع بالخَضِر لم يقرّ له قرار حتى يلقاه، ويتابعه، ويتعلّم منه، لله درُّه نبيًّا متواضعًا حريصًا على العلم!!

" قال ابن القيم: إنَّ الله سبحانه أخبرنا عن صفيه، وكليمه الذي كتب له التوراة بيده، وكلّمه منه إليه، إنه رحل إلى رجل عالم يتعلّم منه، ويزداد علمًا إلى علمه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

لله درُّك يا موسى نبيًّا كريمًا!!

بحث موسى عن مكان الخَضِر:

أخذ موسى يجد السير بحثًا عن الخضر، بعدما أعلمه الله – تعالى – بعلامة ترشده على مكان الخضر، قال ابن عباس: " **قال (موسى): يا ربِّ وكيف به؟ قيلَ له: احملْ حوتًا في مَكتلٍ** (أي: وعاء يضع فيه المسافر زاده) **فإذا فَقَدَهُ فهو ثَمَّ** (أي:

---

[١] – **لِمَ سمى القرآن يوشع بن نون بفتى موسى؟**

قال ابن الجوزي: " سُمي فَتاهُ؛ لأنّه كان يلازمه، ويأخذ عنه العلم، ويخدمه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

[٢] **- ما المقصود بمجمع البحرين؟** ذُكرت أقوال كثيرة تحدد ماهية هذين البحرين من حيث: اسمهما، ومكانهما، ولكن لم يثبت منها شيء؛ لذا الصواب ردّ ذلك إلى علم الله وحده.

هناك)، **فانطلقَ وانطلقَ بفتاهُ يوشعَ بن نون.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

فقد حدد الله تعالى علامة مكان الخَضِر حيثما يفقد الحوت المملح (السمكة) الذي في المكتل.

واتّخذ سبيله في البحر عجبًا:

سار موسى وفتاه سيرًا طويلًا، وهما يحملان المكتل، ولمّا وصلا إلى صخرة نام عندها موسى، ولمّا أوشك يوشع أن ينام إذ بالحوت المملح (أي: السمكة المملحة) في المكتل يضطرب، ويخرج منه، ويسقط في البحر، وسار فيه بطريقة عجيبة، حيث سار في الماء كالسرب في الأرض، أي: " لا يَلْتَئِمُ الماء بعده، فجعل لا يَسْلُكُ فيه طريقًا إلّا صار ماءً جامدًا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

نسيان يوشع أن يخبر موسى بأمر الحوت العجيب:

اندهش يوشع من هذا الأمر العجيب، ولكنه نسي أن يخبر موسى بأمر السمكة، وسيرها الغريب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦١) ويوشع بن نون هو الناسي، وقد أضاف الله النسيان إليهما من باب التغليب.

بعد هذه الاستراحة السريعة، والقيلولة القصيرة أكمل موسى وفتاه سيرهما، فلمّا جاوزا الصخرة التي ناما عندها، شعر موسى بالجوع والتعب، **قال ابن عباس:** " **ولم يجدْ موسى النصبَ حتّى جاوزَ حيثُ أمرَهُ اللهُ.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))، فقال موسى لفتاه يوشع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ (الكهف: ٦٢) أي هيّئ لنا طعامًا، وفي هذا تواضع من موسى إذ جلس يأكل مع خادمه، عندئذ تذكر يوشع أمر الحوت العجيب، فأخبره أنَّ الحوت خرج من المكتل عند الصخرة التي ناما عندها، وأنه نسي أن يخبره بذلك حينما استيقظ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ

أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣) أي: الشيطان هو الذي أنساني ذكر ذلك لك [1]، ثم أخبره يوشع عن سير الحوت العجيب في الماء: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٣)

ذلك ما كنا نبغ:

عند ذلك سُرَّ موسى، ونسي وَعْثاء السفر، ولم يعنف يوشع، وقال بفرح وسرور: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ (الكهف: ٦٤) فهذا هو المكان الذي نبحث عنه، حيث كانت علامة مكان الخَضِر أنه يوجد حيثما يفقد السمكة المملحة الموجودة في المكتل، وسُرعان ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف: ٦٤) أي: رجعا يتتبعان آثارهما لئلا يخطئان الطريق، والقَصص لغة هو متابعة الأثر.

موسى يقابل الخَضِر:

وصل موسى إلى الصخرة، فوجد رجلًا مُسَجّى (أي مُغَطّى) بثوب، فإذ هو الخَضِرُ الذي أنعم الله عليه بالنبوّة، وعلمه من العلم الذي استأثر به، " قال ابن عباس: فَسَلَّمَ موسى فرَدّ عليه، فقال: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، أتيتُكَ لتعلّمني ممّا عُلِّمتَ رَشَدًا، قال: يا موسى، إنّي على علمٍ من علمِ اللهِ عَلَّمَنيهِ اللهُ لا تَعْلَمُهُ، وأنتَ على علمٍ من اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ." (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

هل أتّبعك على أن تعلّمن ممّا علّمت رُشدًا:

بيّن موسى للخضر سبب مجيئه، وهو مرافقتُه للزيادة من العلم، حيث قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦)

وتأمّل – يا رعاك الله: هذا الأدب والتواضع في هذا السؤال من موسى – عليه السلام!!

[1] – حيث ينسب النقص والشرّ وأسبابهما إلى الشيطان.

حيث بدأ بعد السلام بالاستئذان في متابعته، وأنَّه لن يتبعه إلّا بإذنه، ثم سأله سؤالًا غاية في الأدب والتواضع: هل يناسبك مصاحبتي، ويخفُّ عليك ذلك؟ سأل ذلك وهو من هو!

وأخيرًا تأمّل: لم يجيء موسى ممتحنًا، ولا متعنّتًا، بل جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه.

لله درّ موسى صاحب خُلق، وأدب، وعلم!!

موافقة الخضر المشروطة على مصاحبة موسى له:

سمع الخَضِرُ هذا الطلب المؤدب، فأَعْلَمَهُ الخَضِر أنه من الراجح ألّا يصبر على ما يشاهد؛ لأنّ العلم الذي عَلَّمَهُ الله للخضر غير العلم الذي يَعْلَمَهُ موسى، ولمّا كان حرص موسى على التعلم قويًّا، أكدّ له أنه سيكون صابرًا، ولن يخالف له أمرًا، وافق الخَضِر على المصاحبة، وأكد على شرطهما، وهو ألّا يسألَه موسى عن شيء؛ حتى يبادره شرحًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف: ٦٧ – ٦٩)

أحداث الرحلة المباركة:

الحدث الأوّل: الخَضِر يخرق السفينة:

بعدما سنّ موسى والخضر الشروط، وبذلا الوعود بدأت رحلتهما المباركة، قال ابن عباس: " فانطلقا يمشيانِ على ساحلِ البحرِ، فمَرَّتْ بهما سفينةٌ كلموهم أنْ يحملوهم، فعرفوا الخَضِر وحملوهم بغيرِ نَوْلٍ (أي: أجرة)، فلمّا ركبا في السفينةِ جاءَ عصفورٌ، فوقعَ على حرفِ السفينةِ، فنقرَ في البحرِ نقرةً، أو نقرتينِ، قال له الخَضِرُ: يا موسى ما نقصَ علمي وعلمُكَ من علمِ اللهِ إلّا مِثْلُ ما نقصَ هذا العصفورُ بمنقارِهِ من البحرِ، إذْ أخذَ الفأسَ فنزعَ لَوحًا، قال: فلم يفجأْ موسى إلّا وقد قلعَ لَوحًا بالقَدومِ، فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عمدتَ إلى سفينتِهِم فخرقتَها لتغرقَ أهلَها لقد

جئت شيئًا إمرًا [1]، قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ (الكهف: ٧٢ – ٧٣) فكانتِ الأولى من موسى نِسيانًا." (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

قال قطب: " لقد نسي موسى ما قاله لصاحبه، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي! والإنسان قد يتصوّر المعنى الكلّيّ المجرد، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى، والأنموذج الواقعي منه، يستشعر له وقعًا غير التصوّر النظري، فالتجربة العمليّة ذات طعم آخر غير التصوّر المجرد، وها هو ذا موسى الذي نُبّه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرًا على ما لم يحط به خبرًا، فاعتزم الصبر، واستعان بالمشيئة، وبذل الوعد، وقبل الشرط، وها هو ذا يصطدمُ بالتجربة العمليّة لتصرفات الرجل، فيندفع مستنكرًا." (سيد قطب: ١٩٨٦)

وقال صاحب الانتصاف: " وما قاله موسى يدلّ على أن ما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب، والحمية للحقّ، وأنه قال حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (الكهف: ٧١)، ولم يقل: (لتغرقنا) فنسى نفسه، واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال، ولا ولد، وتلك حالةُ الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق، والشفقة عليهم، والرأفة بهم – صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

الحدث الثاني: الخَضِر يقتل غلامًا:

قبل الخَضِر اعتذار موسى، وتابعا السير، قال ابن عباس: " **فلمّا خَرجا من البحرِ مرّوا بغلامٍ يلعبُ مع الصبيانِ، فأخذَ الخَضِرُ برأسِهِ، فَقَلَعَهُ هكذا، وأومأ سفيانُ** (راوي الحديث) **بأطرافِ أصابعِهِ كأنَّهُ يقطفُ شيئًا.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

[1] – شيئًا إمرًا: أي: " شيئًا عجيبًا منكرًا لا يتفق مع أحكام الشريعة فيما أعلم." (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

وصَدَقَ ظنُّ الخَضِر، فلم يستطع موسى صبرًا، فأنكر عليه ذلك إنكارًا شديدًا، فاقَ إنكاره الأوّل، وقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ (الكهف: ٧٤) أي: قتلت نفسًا لم تعمل الذنوب و﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ (الكهف: ٧٤) وبدون سبب، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ (الكهف: ٧٤) أي: لقد جئت شيئًا منكرًا لا يتماشى مع أحكام مع أعلمه من شريعتي.

لم يجب الخَضِر عن هذا التساؤل المُستنكَر من موسى، وإنما ذكَّره بالشرط الذي أَصلاه، فاعتذر موسى ثانية، وقطع على نفسه شرطًا إضافيًّا ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ (الكهف: ٧٦) فقد أعذرتني المرّة تلو المرّة.

الحدث الثالث: الخَضِر يقيم جدارًا:

ما أبداه موسى من حرص على المرافقة جعل الخَضِر يوافق على استمرار المصاحبة، وتابعا سيرهما، **قال ابن عباس:** ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف: ٧٧) **مائلًا – أومأ بيدِهِ هكذا، وأشارَ سفيانُ** (راوي الحديث) **كأنَّهُ يمسحُ شيئًا إلى فوق – قال: قومٌ أتيناهم، فلم يُطعمونا، ولم يضيفونا، وعمدتَ إلى حائطِهِم لو شئتَ لاتّخَذْتَ عليهِ أجرًا."** (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

وكانت هذه الفارقة، فلم يبق لموسى عذر، ولم يعدّ للصحبة مجال! فأعلن الخَضِرُ حينها انتهاء الرحلة قائلًا: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ (الكهف: ٧٨)

سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا:

بقيت نفسُ موسى متشوقة متشوفة إلى معرفة سِرّ ما رأى، فطمأنَّه الخَضِرُ قائلًا: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨)

وشرع الخَضِر يفسّر لموسى ما أُشْكل عليه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

(الكهف: ٧٩) أي: كان أمام هؤلاء البحارة المساكين ملك ظالم يأخذ السفن الصالحة من أصحابها ظلمًا وعدوانًا، فرأفة بهم أردت أن أعيبها بثقبها؛ لئلا يأخذها.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف: ٨٠)، فهذا الغلام عندما يكبر سيصبح كافرًا، والأبوان كانا متعلقين به جدًّا، وحتى لا يحملهما هذا التعلق الشديد على متابعته على كفره قتلته، ثم قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف: ٨١) أي: ينعم الله عليهما بولد أزكى من هذا الغلام الكافر، وهما يكونان أرحم به منه. [1]

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ (الكهف: ٨٢) فكان تحت الجدار كنز ثمين ليتيمين، وإذا انهدم هذا الجدار انكشف الكنز الثمين، وللؤم هذه القرية فمن المتوقع جدًّا أن يمنعوا الغلامين من الحصول عليه، فأراد الله أن يحفظ لهما كنزهما بفضل صلاح أبويهما.

والعجيب أنّ الله – سبحانه – لم يذكر لهذين الغلامين صلاحًا، وإنما ذكر صلاح الأبوين فقط، وفي هذا دليل قوي على أنّ صلاح الآباء يحفظ الأبناء، **قال صلى الله عليه وسلم: " الصلاحُ من اللهِ، والأدبُ من الآباءِ."** (رواه البخاري في الأدب المفرد: (٩٢))

وقال محمود الوراق:

رَأَيْتُ صَلاحَ المَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعديهِمُ داءُ الفَسادِ إذا فَسَد

يُعَظَّمَ في الدُّنيا بِفَضْلِ صَلاحِهِ وَيُحْفَظُ بَعدَ المَوْتِ في الأهلِ وَالوَلَد

[1] – قال القرطبي: ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قطعًا من الأكباد، ومن سلَّم للقضاء، أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وهكذا انتهتِ الرحلةُ المباركةُ بفوائد جمّة، جعلت الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتمنّى لو استمرّت أكثر، حيث قال: " **ودّدنا أنَّ موسى كان صَبَرَ فَقَصَّ علينا من خبرِهما.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

وإليك هذه الفوائد السنية منها!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– في القصّة تأكيد على أهمية الاعتراف بأنّ الله – تعالى – الأكثر علمًا.

– تبيّن القصّة مشروعية خدمة أهل العلم، فقد خدم يوشع موسى أثناء رحلتهما، كما يُشرع التحدّث عن التعب، والمشقة دون السخط على أقدار الله تعالى.

– لم يكن موسى – عليه السلام – متكبّرًا مع أنّه رسولٌ، وممّا يدلّ على ذلك مبادرته للقاء الخضر، وتحمّله للعديد من المشاق في سبيل الوصول إليه، وتناوله الطعام مع خادمه.

في القصّة بيان فضل الرحلة في طلب العلم وأهميتها، فقد رحل الأنبياء والمرسلين في طلب العلم، كما يستحبّ للعالم أن يتعلّم ممّن هو أرفع منه منزلةً في العلم .

- من الجائز أن تكون معلمًا، وتتعلم في ذات الوقت، فموسى سأل الخضر مرافقته للتعلم منه.

- في القصّة تأكيد مبدأ الإصرار على بلوغ الهدف، تأمّل قول موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ (الكهف: ٦٠).

– التعب من أجل العلم فضيلة كبيرة يختفي دونها كل آثار هذا التعب.

– في القصّة الحثّ على قبول عذر الناسي، وبيان أنّ ذلك من خصال الصالحين.

– تعلمنا القصّة أن على المعلّم أن يصبر على طالبه، فقد صبر موسى على تلميذه حينما نسي أن يخبره عن الحوت، وصبر الخضر على موسى في احتجاجاته على ما كان يفعله .

– يستحبّ قول: (إن شاء الله) لمن أراد القيام بفعلٍ معينٍ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقولَنَّ لِشَيءٍ إِنّي فاعِلٌ ذلِكَ غَدًا إِلّا أَن يَشاءَ اللَّهُ وَاذكُر رَبَّكَ إِذا نَسيتَ وَقُل عَسى أَن يَهدِيَنِ رَبّي لِأَقرَبَ مِن هذا رَشَدًا ﴾

– الأدب مع الله صفة أوليائه الصالحين، وأصفيائه المقربين، فالخضر عندما تحدث عن الإرادة في حادثتي السفينة والغلام أسند الإرادة إلى نفسه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ (الكهف: ٨١)، وعندما تحدث عن الإرادة في حادثة الغلامين اليتيمين وجدارهما أسند الإرادة إلى الله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢)، مع أن القصّة واحدة والكل بقضاء الله، وقدره؛ وذلك لئن الشر لا ينسب إلى الله، وإن كان بتقديره وأمره أدبًا مع الله، وأمّا الخير فينسب إليه.

– وفي القصّة أدب آخر، وهو نسب الفضل لله، حيث نسب الخضر ما فعله إلى أمر الله، ووحيه، وليس من اجتهاده، أو من فراسته، ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ (الكهف: ٨٢).

– قال السعدي: " العلم الذي يُعلّمه الله للعبد نوعان:

أ– علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجده.

ب– علم إلهي لدني يهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ (الكهف: ٦٥)

والخضر أُعطي من هذا النوع الحظ الأوفر." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

في القصّة بيان أهمية إنكار المنكَر بالنسبة للمسلم، كما أنكر موسى على الخضر ما يفعله، وقد قال السعدي: " الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء، فإنّ موسى – عليه السلام – أنكر على الخضر خرق السفينة، وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله، ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدئ." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

فالعبرة في الدنيا بما في الظواهر، " ولا يجوز البحث عمّا في الباطن، وفي هذا التشريع سدّ للذرائع، ومنع الذين يحبون الانتقام، والثأر، والقتل بدعوى عدم صدق الباطن." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

وفي نفس الوقت " إجراء الأحكام الإسلامية على ظواهر الناس، وما يصدر منهم من أعمال، ولا تبرر النية الحسنة عدم إقامة الحدود والقصاص." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

– قال الصايم: " يأتي الشيطان إلى المؤمن إذا أصيب في نفسه، أو ماله، أو ولده، ويقول له: إذا كنت على حق فلماذا تصاب بهذا الألم؟ دعك ممّا أنت فيه من صلاة، وصوم، وذكر، وعبادة. فغيرك يعيش هنيًا مع أنه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يعبد." (محمد الصايم)

ولو لمح قائل هذا الكلام أنَّ الذي ابتلاه العليم الحكيم!

لم يصدق ذلك، ولم يبق له إلّا التسليم والاذعان لمّا خُفِيَ عليه من حكمة هذا الابتلاء!

وتأمّل حال الخضر وموسى – عليهما السلام – لمّا فعل الخضر أشياء تخرج عن المألوف والعادات أنكر موسى – عليه السلام – ذلك، ونسى إعلامه له ألّا يسأل فيما لا يعلمه من العواقب.

فإذا خُفيت مصلحة العواقب عن موسى – عليه السلام – مع مخلوق، فأولى أن يُخفى علينا كثير من حكم ابتلاء العليم الحكيم لنا!

قال ابن القيم: " وإنَّ من رحمته ابتلاءه، فمنع عباده عن كثير من شهواتهم بالابتلاء، ولكن العبد لجهله، وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بهذا الابتلاء والامتحان؛ لذا نغص على عبده الدنيا؛ لئلا يسكن إليها، ولا يطمئن إليها؛ وليرغبه في النعيم المقيم في دار خلده وجواره، فساقه إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعه؛ ليعطيه، وابتلاه؛ ليعافيه، وأماته؛ ليحيه." (ابن القيم بصرف: ٢٠٠٢)

–حدوث ما لم تتوقعه قد يكون أحيانًا جيداً من حيث لا تدري، وعقلية ﴿ذلك ما كنا نبغِ﴾ في التعامل مع الأمور ممتازة، بمعنى أنه إن وقع شيء سلبي – كما وقع لموسى ووفتاه من نسيان الحوت مع أنهما كانا متعبين – يمكن استخراج الأمر الإيجابي منه ﴿ذلك ما كنا نبغِ﴾!

o o o o

قصّة قارون

البداية:

جبلت النفوسُ على حبّ الدنيا، والركون إليها، والحرص عليها، فقد زيَّنَها اللهُ تعالى لتكون لعباده اختبارًا.

قال صلى الله عليه وسلم: "**إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتخلِفكم فيها، فينظُرُ كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقوا النساءِ، فإنَّ أوّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ.**" (رواه مسلم: (٢٧٤٢))

فمن ركن إليها خسر، ومن اشترى نفسه ببيعها ربح، وصدق تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (العنكبوت: ٦٤)

بغي قارون على قومه:

وممّن غَرق في بحورها، وافتتن بزينتها الكاذبة قارون، وقد قصّ الله خبره في قرآنه الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ (القصص: ٧٦) أي: لم يكن قبطيًّا، وإنما كان من عشيرته، وقيل: كان ابن عمه، فبغى عليهم، ولم يذكر القرآن صور بغي قارون، وإنما أشار إلى بغيه إشارة عامّة.

وسبب بغيه قيل: حسدًا لموسى وهارون حيث إنهما لم يبقيا له من الأمر شيئًا، وقيل كبرًا بكثرة ماله، فقد كانت أمواله تضيق بها الخزائن العظام من كثرتها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦) أي خزائنه، وقيل: مفاتيحها، ليثقل حملها على الجماعة الكثيرة من الرجال والدوابّ، والآية فيها تصوير بديع للثراء الفاحش الذي وصل إليه قارون! وأعد قراءة هذه الكلمات: كنوز، مفاتيح، النوء، العصبة، وأولي القوة، ستشعرك بثرائه، وفي نفس الوقت بتكبره!

نُصْح قوم قارون:

كان قارن يزهو بهذا المال بطرًا، واختيالًا، وتكبرًا، وعلوًّا، ممّا دفع قومه أن يقولوا له: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾ (القصص: ٧٦) أي: لا تفرح فرح الباطر الأشر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦) أي: إن الله لا يحبُّ الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على نعمه، ويتكبرون بها على عباده.

وأكملوا نصحه ببيان الصراط السوي في التعامل مع هذه الحياة الدنيا ومفاتنها، فقالوا: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ (القصص: ٧٧) أي: " اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات" (محمّد الصابوني)

وقالوا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (القصص: ٧٧) قال الحسن: " لا تضيع حظك من دنياك في تمتيعك بالحلال، وطلبك إياه." (محمّد الصابوني)

قال ابن تيمية: ما أمر الله عباده بأمر إلّا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر، إمّا إفراط فيه، وإمّا تفريط فيه.

ولا يفتأ قومه يثيرون فيه روح البذل والعطاء للمحتاجين والبؤساء، ويحذرونه الفساد في الأرض بأن يجعل همّه تكديس الأموال فوق الأموال، والبخل في إنفاقها في مصالح المعوزين والفقراء، حيث قالوا: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧) أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك، ولا تطلب بهذا المال التطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي، فإن الله لا يحبّ الذين يفسدون في الأرض.

ونصحهم هذا لقارون: " يُمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضّه على هذا، ويكلفه إياه تكليفًا؛ كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة، ويضعفها." (سيد قطب: ١٩٨٦)

رفض قارون النصيحة:

قارون الباطر الأشر ما ارْعَوى عن تكبره!! وما انتهى عن تفاخره!! وقال لهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص: ٧٨) أي: " أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإنّ الله تعالى، إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقّه، ولمحبته لي." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وهذا ظنٌّ كثير من المغرورين أمثال قارون يظنّون أن الله يعطيهم من الأموال، والأولاد، وسائر متاع الدنيا؛ لكرامتهم عليه، أو معزّتهم عنده، لا أيها المغرورون، ليس الأمر كما تظنّون فقد أخطأتم، وخاب رجاؤكم، بل نفعل بكم ذلك استدراجًا، وإنظارًا، وإملاءً، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)

قال قتادة: مُكِرَ – والله – بالقوم في أموالهم، وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم، وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان، والعمل الصالح.

وعن ابن مسعود: **قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللهَ قسّم بينكم أخلاقَكم كما قسّم بينكم أرزاقَكم، وإنَّ اللهَ يُعطي الدنيا من أحبّ ومن لا يحبّ، ولا يُعطي الدينَ إلّا لمن أحبّ، فمن أعطاهُ اللهُ الدينَ فقد أحبّه."** (رواه أحمد: (٣٦٧٢)، والحاكم: (٧٣٠١)، والبيهقي: (٥٥٢٤))

تمنّي بني إسرائيل ما عند قارون:

ويا للأسف!! دنيا هؤلاء الأشرين البطرين قد يَنخدع بها كثير ممّنْ يُعَظّم زهرة الحياة الدنيا، وقد يتمنّونها ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: ٧٩) أي: لمّا خرج قارون بزخرف زينته على قومه انبهر ضعاف الإيمان بما رأوا من أبهة، وزينة، فقالوا متحسرين: يا ليت لنا مثل هذا الغني، إن قارون لذو نصيب وافر من الغنى والنعيم!

فيا للعجب!! أن تجد الناس يعظمون الغني؛ حتى وإن كانوا لا ينتفعون بماله!!

وذلك لأن أغلب الناس يقيسون الخلق بالمال؛ لأنّ هذا المال محبوب للنفوس!

تحذير العلماء الربانيين من الانخداع بغنى قارون:

" لمّا سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد، والألباء، قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (القصص: ٨٠) أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير، وأبقى، وأجلّ، وأعلى." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقالوا لهم: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠) أي: " وما يلقى هذه النصيحة، وهذه المقالة، وهذه الهمّة الساميّة إلى الدار الآخرة العالية، عند النظر إلى زهرة الحياة الدنيا الدنيّة إلّا من هدى الله قلبه، وثبت فؤاده، وأيد لُبّه، وحقّق مراده." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

لطيفة: قال ابن كثير: " وقد أحسن ما قاله بعض السلف: إنَّ الله يحبّ البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

هلاك قارون:

قال قطب: " وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس، وتتهاوى، تتدخل يد القدرة؛ لتضع حدًّا للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيمًا، ويجيء المشهد الحاسم الفاصل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١) [1]" (سيد قطب: ١٩٨٦)

" هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ (القصص: ٨١) فابتلعته، وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها، واستطال فوقها جزاء وفاقًا." (سيد قطب: ١٩٨٦)

[1] – الخسف هو: النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفًا إذا غار في الأرض، وخسف الله بفلان الأرض، إذا غيبه فيها.

وقد جاء في الصحيح: " **بينما رجلٌ يَمشي في حُلَّةٍ تُعجبُهُ نفسَهُ، مُرَجّلٌ جُمّتَهُ، إذ خسفَ اللهُ به الأرض، فهو يتجلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ.**" (رواه البخاري: (٥٧٨٩)، ومسلم: (٢٠٨٨) باختلاف يسير.)

انكشاف حقيقة الدنيا الزائفة:

هوت الدنيا الزائفة! وسقطت زينتها الخادعة! وانكشف أقنعة الغفلة! ورجعت العبرة! فكان المشهد الأخير:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] (القصص: ٨٢)

قال الزمخشري: " ومعناه: أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنّيهم منزلة قارون وتندموا." (محمّد الصابوني)

وقال سيد قطب: " وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنّوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رِضى الله." (سيد قطب: ١٩٨٦)

قال قطب: " ويسدلّ الستار على هذا المشهد، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كِفة الميزان، ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)" (سيد قطب: ١٩٨٦)

قال الصابوني: " الإشارة (بتلك) للتفخيم والتعظيم، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي، ونجعلها للمتقين." (محمّد الصابوني)

---

[1] – معنى (ويكأن): قال الزمخشري: " ويكأن كلمتان: (وي) مفصولة عن (كأن)، وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم." (محمد الصابوني)، ومعنى قوله: ﴿**وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ أي: ألم تر أن الكافر مثل قارون لا يفلح في الدنيا والآخرة، فقد كان قارون كافرًا.

ثم يخبر تعالى: أن من جاء يوم القيامة بحسنة يضاعفها برحمته أضعافًا مضاعفة، بينما من جاء بسيئة لا يجزى إلّا بسيئة واحدة، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القصص: ٨٤)

زيادة وتفصيل:

١.ما المقصود بـ (العلوّ والإفساد) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؟

قال سفيان الثوري: " العلوّ في الأرض التكبر بغير حقّ، والفساد أخذ المال بغير حقّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

٢.ما المقصود بـ (العاقبة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؟

قال الضحاك: " الجنّة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ويُحْسَنُ تذكير الناس في هذا المقام بالجنان، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوسهم سيندفعون لمرضاة الله، ويرغبون فيما عنده تعالى، وترخص الحياة الدنيا.

ونصل الآن إلى قطف ثمار القصّة!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

- الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا من مأكل، أو مشرب، أو ملبس، أو غير ذلك لا تمنعه أي شريعة سماوية، بل إظهار النعمة بغير إسراف، ولا مخيلة أمر مطلوب دينيًّا، فقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأحوص أن يرى أثر ماله، فعن أبي الأحوص عن أبيه قال: دخلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرآني سيء الهيئة **فقال – صلى الله عليه وسلم: هل لك من شيء؟** قال: نعم من كل المال قد أتاني الله، **فقال: إذا كان لك مال فلير عليك.**" (رواه النسائي)

وليس معنى ذلك الإسراف في هذا الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا، فعن أبي سعيد الخدري، **أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قام على المنبر فقال: " إنما أخشى عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من بركات الأرض"**...، فقام رجل فقال: يا رسول الله،

أو يأتي الخير بالشر؟ (يعني ممّا يفتح علينا من الغنائم والأموال خير، وهل يأتي هذا الخير بالشر؟) فسكت عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ثم إنه مسح وجهه الرحضاء (العرق)، **فقال: أين السائل آنفًا؟** (وكأنه حمده)، **إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن ممّا يُنْبِتُ الربيع ما يقتل حَبَطًا، أو يُلِمُّ إلا آكلة الخضر، كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، استقبلت الشمس، فثلطت، وبالت، ثم رتعت** (أي: عادت فأكلت)، **وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المال لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله، واليتامى، والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة.**" [1] (رواه البخاري برقم: (١٤٢٧)، ومسلم برقم: (١٢١))

" فحاصل هذا الحديث الشريف: أنّ المال قد يكون سببًا في دمار صاحبه، وهلاكه في الآخرة، وذلك إذا صرف في المعاصي، وتوصل به إلى الشهوات النفسانية، مع أن المال خير، فينبغي أن يتوصل به إلى مرضاة الله – عز وجل." (قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

فعلم مِمّا تقرر أنّ المال في نفسه ليس خيرًا، ولا شرًا، وإنما الخير والشر في نفس الرجل، فإن أصرفه في الخير كان خيرًا، وإن أصرفه في الشرّ كان شرًّا له، **وقال صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة.**" (رواه ابن ماجه برقم: (٤١٣٥،٤١٣٦)) (قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

وهذا دعاء منه – صلى الله عليه وسلم – على مَنْ أشغله جمع المال من حلّه وحرامه عن آخرته.

ولا يُظنَّ أن الإسلام دين يدعو إلى الفقر، وترك العمل والبلادة، فمن قال: " **تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة.**" هو هو من **قال: " اليد العليا خير من اليد السفلى.**" (رواه البخاري برقم: (١٤٢٧))

---

(١) الحَبَط: أن تأكل الدابة، حتى تنتفخ بطنها وتموت بسبب كثرة أكلها، ويُلِمَ: يقترب من الهلاك، وتلطث: تغوطت غائطًا رقيقًا. (قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

وقد استعاذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الفقر، وروي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال: الفقر الموت الأكبر.

فالإسلام لم يذمّ المال وجمعه على إطلاقه، وإنما ذمّ من صار المال كل همّه، وحرص كل الحرص على جمعه من حلاله وحرامه، ورَغِبَ فيه حتى صار خادمه وعبده، وصار به مختالاً فخورًا.

وبذلك نفهم **قول الرسول – صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا كِفافًا.**" (رواه مسلم في الزهد برقم: (١٩)) أي: ليس فقرًا يُنسي الطاعات لمّا في الفقر من جوع وعُري، ولا غنى يُطغي، فيمنع عن طاعة الله.

– صناعة الداعي من شأنها الاتّصال بنفوس من يخاطبهم، والقرب من قلوبهم، والناس طرائق قِدد منهم القوي، والضعيف، والعزيز، والوضيع، والغني، والفقير، ولكل صنف من هؤلاء أحوال تقتضي نوعًا من الخطاب لا تقتضيه أحوال الأصناف الأخرى، والداعي النابه هو الذي يتلمس ما يناسب الجماعة التي يدعوها، ويعالجها بأنجع دواء لها؛ ليستقيم له الطريق، ويصل إلى غرضه، وقوم قارون انتهجوا نفس النهج في دعوتهم قارون، فقارون الغني – كجميع الأغنياء – لا يُرضي كبرياؤه إلا كلامًا من نوع خاصّ، مثل: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)

فكانت دعوتهم له دعوة حكيمة متزنة تحضه على الإحسان، ولا تلغي استمتاعه بالحياة وزينتها، ومثل تلك الدعوة يرضى بها الأغنياء مثل قارون، ورفض قارون لدعوتهم ليس لخطأ ذلك النهج، وإنما لخبث طبعه، وتكبره.

– المال قد يكون وبالًا على صاحبه؛ وذلك إن لم يستخدمه صاحبه في طاعة الله، وتأمّل قارون الغني، استعمل المال في المعاصي والفساد في الأرض، بدلًا من أن يستعمله فيما يرضي المنعِم – سبحانه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ

نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، فكانت عاقبته ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١)

ويحسن ذكر أمثلة لنماذج سيئة لبعض الأغنياء الذين ينفقون الأموال في المعاصي، والرذائل، واللهو المحرم: كالإنفاق على الفضائيات الفاسدة، والتنافس في مظاهر الدنيا: كالسيارات الباهظة الثمن، والهواتف، والمصايف، والمنتجعات، وغير ذلك.

أين هؤلاء من الأغنياء الصالحين الذين ينفقون أموالهم في مرضات الله في كل زمان ومكان؟! أين هؤلاء من عثمان بن عفان الذي جهز جيش العسرة، وتصدق بتجارته عام الجدب على فقراء المسلمين، واشترى بئر رومة صدقة جارية للمسلمين، وغيره من الصالحين.

– كثرة المال ليست دليلًا على محبة الله ورضاه عن العبد، فقد أعطى الله المال لقارون مع شدّة كفره؛ حتى قرنه بفرعون وهامان في الكفر والتكذيب: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ (غافر:٢٣-٢٤)، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المؤمنون:٥٥-٥٦)

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم: " **إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾**" (الأنعام:٤٤) (رواه أحمد، وصححه الألباني).

– كفر نعمة الله سبب في تعجيل العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، وهذه سُنة مطردة في كلّ من كفر بنعمة الله، قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ (العنكبوت:٣٩-٤٠)، وقال – تعالى – عن صاحب الجنتين: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٢)، وقال عن أصحاب الجنة البخلاء: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ (القلم:٢٣-٣٢).

– الله يقدّر الأرزاق لحكمة بالغة، فإن مِن العباد مَنْ يصلحه الغنى، وإن منهم مَنْ لا يصلحه إلّا الفقر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ (العنكبوت:٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:٢٧)، وروي في الأثر: " **إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ**" (رواه البيهقي في الأسماء، والصفات، وضعفه الألباني).

والمال بذلك قد يكون في حقّ بعض الناس نعمة، وقد يكون في حق غيرهم نقمة: قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا﴾ (الكهف:٧)، وقال عن سليمان – عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (النمل:٤٠)، ولكن الجهلة المغترين بالثراء والشهوة عدوها ذلك مقياسًا للسعادة: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

– المال عرض زائل، ومتاع مفارق، فكل متاع الدنيا بما فيه المال، سيزول عن الإنسان، أو يزول الإنسان عنه، ولا بدَّ، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:٢٠)، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم: **(يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنانِ، ويَبْقَى معهُ واحِدٌ: يَتْبَعُهُ أهْلُهُ، ومالُهُ، وعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أهْلُهُ، ومالُهُ، ويَبْقَى عَمَلُهُ)** (رواه البخاري: (٦٥١٤)، ومسلم: (٢٩٦٠)، والترمذي: (٢٣٧٩) والفظ له، والنسائي: (١٩٣٧)، وأحمد: (١٢٠٨٠)).

o o o o

قصّة طالوت وجالوت

البداية:

بعد وفاة موسى وهارون – عليهما السلام، تولّى أمر بني إسرائيل نبيٌّ من أنبيائهم يقال له يوشع بن نون – عليه السلام، وقد جاء ذكر يوشع بن نون في القرآن بدون التصريح باسمه، وذلك في قصّة موسى والخَضِر، حيث سماه القرآن (فتاه) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ (الكهف: ٦٠)، بينما صرحت السنة الشريفة باسمه حيث جاء في حديث ابن عباس: " **فانطلقَ، وانطلقَ بفتاهُ يوشع بن نون.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

ويوشع بن نون هو الذي فتح الله على يديه القدس، ودخل ببني إسرائيل الأرض المقدّسة بعد فترة التيه، وهو الذي حبست الشمس له، كما جاء في الحديث الصحيح: " **ما حبستِ الشمسُ على بشرٍ قطّ إلّا يوشع بن نون ليالي سارَ إلى البيتِ المقدس.**" [1] (رواه أحمد: (٨٣١٥)، والخطيب وابن عساكر واللفظ لهما، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة: ٢٢٢٦))

على كل حال الذي قام بأمر بني إسرائيل بعدما دخلوا الأرض المقدّسة هو يوشع بن نون، ولمّا مات يوشع بن نون ارتد بنو إسرائيل إلى الوثنيّة الشنعاء، وضيعوا شريعتهم السمحاء، وفشت فيهم معاصي، ومنكراتٌ دهماء، فَسَلَّطَ اللهُ عليه من يسومهم سوء العذاب.

---

[1] – حبس الله الشمس ليوشعَ أي أخر دورانها وحركتها؛ وذلك لأن القتال كان جاريًا يوم الجمعة، وكادت الشمس أن تغرب، وتدخل ليلة السبت، فخشى يوشع أن يعجزوا؛ لأنّه كان في شريعتهم لا يحلُّ لهم القتال في يوم السبت، فدعا الله ألّا تغرب الشمس، فأمسكها الله حتى فتح بيت المقدس.

من هؤلاء الذين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب؟

اختلفت أقوال المفسرين في تحديد ماهية هؤلاء القوم، والصحيح: أن بني إسرائيل منذ أن مات موسى وهارون – عليهما السلام، كان بينهم وبين أعدائهم جولات وصولات، مرّة يُدالُ لبني إسرائيل على عدوّهم، ومرّة يدال لأعدائهم عليهم، حتى كانت هذه المرّة قبيل ظهور داود – عليه السلام، والتي كانت فيها الغلبة لأعداء بني إسرائيل، والتي ساموهم فيها أشدّ العذاب.

طَلَبُ بني إسرائيل من نبيّهم إقامة ملكًا عليهم:

لما غلب أعداءُ بني إسرائيل عليهم، وساموهم أشدّ العذاب، عندها اشتدّ البلاء على بني إسرائيل، وعمّهم الظلم، والقهر، وغشيتهم الذلّة، والمهانة، فجأر ملؤهم إلى نبي لهم [1]؛ ليقيم عليهم ملكًا منهم ليقاتلوا وراءه عدوّهم، فكان من أمرهم ما قصّه الله علينا من خبرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة :٢٤٦) أي: ألم يصلك يا محمّد، خبر هؤلاء القوم العجيب من بني إسرائيل حينما قالوا لنبيّهم: أَقِمْ لنا أميرًا؛ ليكون قائدًا لنا؛ حتى نقاتل خلفه عدوّنا، والاستفهام غرضه التعجب!!

استوثاق نبيّهم من جدية بني إسرائيل على القتال:

سمع هذا النبي الكريم مقالتهم، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ (البقرة: ٢٤٦)، و(عسى) هنا بمعنى التوقع والمقاربة، أي: أخشى عليكم أنه إن فُرِضَ عليكم القتال الذي طلبتموه أن تجبنوا، ولا تقاتلوا عدوّكم!!

---

[1] – اختلف المفسرون في تحديد اسم هذا النبي على أقوال، منها: هو شمويل، وقيل: هو يوشع بن نون، وقيل: هو شمعون، **والصواب:** عدم القطع بشيء من هذا؛ لعدم وجود دليل شرعي صحيح في ظاهر القرآن، ولا في السنّة الصحيحة يقطع باسم هذا النبي الكريم.

وتأمّل التعبير القرآني: (لنبي لهم) فقد جاء نكرة إشارة إلى أن محلّ العبرة ليس هو اسم شخص النبي، وإنما المقصود معرفة حال هؤلاء القوم مع نبيّهم.

تساؤل: لِمَ أراد نبيّهم أن يستوثق منهم عدم الفرار من أمام عدوّهم؟

استوثق نبيّهم منهم ذلك؛ لأنّه – فيما يبدو – كان يتشكّك في صدقهم على طلب القتال،

فتوجس من نكولهم ونكوصهم عن القتال إذا فرض عليهم، فأراد أن يتأكد من جدّيّة طلبهم.

بنو إسرائيل يبدون الحماسة للقتال:

سمع بنو إسرائيل هذا الاستوثاق من نبيّهم، فأجابوه بحماسة، وقوّة: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦) أي: وأي مانع يمنعنا أن نقاتل في سبيل الله.[١]

ويبدو أنهم قد شعروا بشكوك نبيّهم حول جدّيّتهم للقتال، فذكروا علّة مقنعة تبرر حماسهم هذا للقتال، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ (البقرة:٢٤٦) أي: وما لنا لا نقاتل، وقد سلبت منا بلادنا، وسببت منا أولادنا!!

هل صدقت حماستهم هذه للقتال؟

الإجابة: لا، فطبيعةُ التلكؤ والالتواء غلبت على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (البقرة :٢٤٦) أي: " لمّا فرض

---

[١] - قال قطب: " وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، أنه في سبيل الله يشي ذلك بانتفاضة للعقيدة في قلوبهم، ويقظة إيمان في نفوسهم، وشعور عميق بأنهم أهل دين، وعقيدة، وحقّ، وأن أعداءهم على ضلالة، وكفر، وباطل، وهذا الوضوح، وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر، فلا بدَّ للمؤمن أن يتضح في حسّه أنه على حقّ، وأن عدوّه على باطل، ولا بدّ أن يتجرد في حسّه الهدف .. في سبيل الله .. فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلى أين يسير." (سيد قطب: ١٩٨٦)

عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلّا فئة قليلة منهم صبروا، وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت (على ما سيأتي بيانه إن شاء الله)." (محمّد الصابوني)

لطيفة: لِمَ قال تعالى: (كُتِبَ) ولم يقل: (كَتَبَ)؟

قال الشعراوي: قال تعالى: (كُتِبَ) لأنّهم هم الذين طلبوا تشريع القتال، فجعلهم الله داخلين في العقد، فجاء التعبير بـ (كُتِبَ) ولم يأت بـ (كَتَبَ)!! ومع ذلك تولوا أي أعرضوا عن القتال!!

يا للعجب!!

ينكلوا عن قتال عدوّهم، بعدما أكدوا على أنفسهم القتال الذي سمّوه (هم) في سبيل الله!!

يا للعجب!!

يجبنوا عن قتال الذين قد ساموهم سوء العذاب!!

ولله درُّ القرطبي حين قال: " وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة تتمنّى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب جبنت، وانقادت لطبعها." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ولشدّة هذا الجرم منهم، فقد توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:٢٤٦)، والآية تحمل إشارة قويّة مفادها: إنكم بارتكابكم هذا الجرم الفظيع أصبحتم من الظالمين لأنفسكم، والله عالم بما أضمرتم في نفوسكم، وسيجزيكم على هذا الظلم بأشدّ الجزاء.

إقامة طالوت ملكًا على بني إسرائيل:

قال تعالى:﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ (البقرة: ٢٤٧) أي: أخبرهم نبيّهم بأن الله تعالى قد ملّك عليهم طالوت؛ حتى يدير لهم أمر حرب أعدائهم، ومفهوم هذا الكلام أن ينصاعوا لهذا الاختيار الإلهي.

فمن طالوت هذا؟

طالوت: اسم أعجمي، وقيل: إن هذا الاسم لقب له مأخوذ من الطول كملكوت من الملك؛ لأنّ طالوت كان طويلًا جسيمًا، وقيل: وهو المسمى في التوراة باسم شاول.

ويبدو أن طالوت كان شخصًا عاديًّا من حيث النسب، والمال، بينما كان متفوقًا من ناحية الجسم، والعلم.

اعتراض بني إسرائيل على إقامة طالوت ملكًا عليهم:

ومن هنا تبدأ قصّة نكولهم، فاعترضوا على هذا الاختيار – بالرغم من أنه على لسان نبيّهم ومن ربّهم – باعتراض باهت بارد قائلين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ (البقرة: ٢٤٧) أي: قالوا: كيف يكون طالوت هذا ملكًا علينا؟ ونحن أحقّ بالمُلك منه لأنّه – ببساطة – دوننا في النسب والشرف، كما أنه فقيرٌ!!

حيث ذكر: أن طالوت كان سقاءً، وقيل: دباغًا، وذكروا: " أن النبوّة كانت في سبط لاوي، وأن المُلك كان في سبط يهوذا، فلما كان طالوت من سبط بنيامين نفروا منه، وطعنوا في إمارتِه عليهم، وقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ (البقرة: ٢٤٧)" (محمود المصري: ٢٠٠١)

هذا الذي ذكره المفسرون وإن كان محتملًا، إلّا أنه مأخوذٌ من الإسرائيليّات.

على كل حال: في اعتراض بني إسرائيل السابق تظهر لنا سمة تكاد تكون خاصّة بهم، وهي سمةُ النكول، ونكث العهود، والتفلت من الطاعة، والتولّي عن الحقّ الواضح المستقيم.

تبرير نبي بني إسرائيل تنصيب طالوت ملكًا:

تعجب نبيّهم من اعتراضهم الباهت هذا على تنصيب طالوت ملكًا عليهم، ثم ساق تبريرًا منطقيًّا لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧) أي: " أجابهم نبيّهم على اعتراضهم قائلًا: إن الله اختاره

عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختبار أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني: قوّة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ومكابدة الشدائد، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظّ وافر." (محمّد الصابوني)

وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ (البقرة: ٢٤٧) أي: يعطي الله مُلكه لمن يشاء من عباده لحكمة يعلمها، فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره، والله واسع الفضل على من يشاء.

ثم زادهم نبيّهم دليلًا مبينًا على أحقية طالوت بالمُلك بأنّ: ﴿ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (البقرة: ٢٤٨) قال ابن الجوزي: " الآية: العلامة، فمعناه: علامة تمليك الله إياه (أن يأتيكم التابوت)." (محمود المصري: ٢٠٠١)

والمعنى: علامة تمليكه من الله عليكم أن يردَّ الله إليكم التابوت الذي قد أخذ منكم، فقد كانوا إذا حاربوا حمله جماعة منهم، ويتقدمون به أمام الجيش، فيكون ذلك سكينة لهم، وسببًا من أسباب النصر، لا هو الذي يحقّق النصر بنفسه؛ لأنّ النصر من عند الله.

لطيفة: قال ابن الجوزي: " وفي الحقيقة أن التابوت يُؤتى به، ولا يأتي، ومثله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ (محمّد: ٢١)، وإنما جاز مثل هذا؛ لزوال اللبس فيه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

زيادة وتفصيل:

١. ما المقصود بهذا التابوت؟

كلمة التابوت لغة تعني: الصندوق، والوعاء، ومنه سُمي القلب تابوت الحكمة.

قال الزمخشري: " هو صندوق التوراة الذي كان موسى – عليه السلام – إذا قاتل قدمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل، ولا يفترون." (محمّد الصابوني)

٢. لِمَ ذَكَرَ لهم نبيّهم مآثر التابوت مع أنها كانت معروفة عندهم؟

ذكّرهم نبيّهم مآثر التابوت مع أنها كانت معروفة عندهم؛ لأنه لمّا طال غيابه عنهم كأنهم نسوه، فذكرهم بمآثره.

٣. ما المقصود بالسكينة التي كانت في التابوت؟

السكينة: الطمأنينة وزوال للرعب، والمقصود بالسكينة التي كانت في التابوت: هي السكونُ، والطمأنينة، والوقار، وزوال للرعب من الأعداء، عند تقديم التابوت أمام الجيش، فهي من أسباب السكون، والطمأنينة، وبذلك تقوى نفوسهم، وترتفع معنوياتهم، فيكون ذلك من أسباب النصر، فذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ (التوبة: ٤٠) أي: " طمأنينته، وما ثبّت الله به قلبه." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال ابن عطية: " والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة، من بقايا الأنبياء، وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به، وتقوى." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

٤. ما الذي كان في التابوت؟

كان في التابوت: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٨) أي: وفي التابوت بقية ظلّت باقية من آثار آل موسى وآل هارون، قيل: هي: بقية من رضاض ألواح التوراة (أي: فتات الألواح، وما تهشّم منها)، وقيل: عصا موسى وهارون، وقيل: نعلا موسى، وعمامته، وثيابه.

وهذا التحديد لهذه البقيّة من أخبار بني إسرائيل؛ **لذا الصواب:** أن في التابوت مخلفات من مخلفات موسى وهارون، والله أعلم بها، وإن كان محتملًا أن تكون هذه المخلفات كما ذكروا.

٥.ما المقصود بـ ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٨)؟

قال أبو شبهة: " المقصود بآل موسى وآل هارون هما ذاتهما، وهذا أمر معهود في لغة العرب، وفي الحديث الشريف: " **ولقد أعطي مزمارًا من مزامير آل داود**"، أي صوتًا حسنًا، ولم يكن في آل داود حسن الصوت أحد إلّا هو، فالمراد بآل داود داود نفسه." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

الملائكة تحمل التابوت:

ساقَ لهم نبيّهم على أحقية تنصيب طالوت ملكًا عليهم أدلّة عدّة، وها هنا يذكر لهم علامة أخرى قاطعة، ومعجزة بينة باهرة؛ لصحة تنصيب طالوت ملكًا عليهم، وهي: أن الذي سيحمل هذا التابوت الملائكة ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (البقرة: ٢٤٨)

كيف كان حمل الملائكة لهذا التابوت؟!

ذكر المفسرون أقوالًا كثيرة عن كيفية حمل الملائكة لهذا التابوت أشهرها: لمّا جاءت الملائكة بالتابوت جاءوا به، والدوابّ تسوقه.

وهذا الكلام غير صحيح، لأنّ المتبادر للذهن السليم من كلمة (تحمله) هو: أن الذي كان يحمل التابوت الملائكة حتى وضعوه بين أظهرهم.

قال ابن عباس: " جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض؛ حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون." (محمّد الصابوني)

لذا نقول: إن التابوت عاد إلى حوزة بني إسرائيل، جاء والملائكة تحمله، من غير بحث طويل في الكيفية التي حملته بها الملائكة، فغاية مجيء الملائكة بالتابوت هي التدليلُ على صحة تنصيب طالوت ملكًا عليهم؛ لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨) أي: " إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره؛ ليكون ملكًا عليكم، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر." (محمّد الصابوني)

وأخيرًا الذي يظهر من كثرة الآيات التي ساقها نبيّهم لشعب بني إسرائيل على أحقية تنصيب طالوت ملكًا عليهم، تظهر شغب هؤلاء القوم، وعنادهم، ولجاجهم، وتولّيهم عن الحقّ المستقيم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبرز صفة جبلت فيهم، وأخذت تترسخ فيهم جيلًا إثر جيل، ألا هي جبنهم، وخور نفوسهم، فكأن اعتراضهم على تنصيب طالوت ملكًا عليهم، كأنه اعتراض على نفس فكرة القتال والجهاد.

تجهيز طالوت الجيش:

بعدما شاهد بنو إسرائيل هذه المعجزات الخارقات سلّموا أمرهم لطالوت، فصار طالوت ملكًا عليهم، وما أن تمكن طالوت من منصبه إلّا أخذ يعدّ العُدّة والعَدد لقتال أعداء الله، فوصل الليل بالنهار حتى جهّز جيشًا عظيمًا كبيرًا.

كم كان عدد هذا الجيش؟

ذُكر: أنه كان ثمانين ألفا من المقاتلين.

ويبدو أن هذا مأخوذٌ من الإسرائيليّات، والأصوب عدم القطع بالعدد لغياب الدليل الشرعي الصحيح عليه.

اختبار الجيش:

ولمّا تكامل جيش طالوت عُدّة وعددًا خرج بهم طالوت من فَوْرِهِ لملاقاة عدوّهم، وفي أثناء الطريق أخبرهم طالوت بأمر عجيب! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي: لمّا خرج طالوت بالجيش متجاوزًا مواطنهم، وشاخصًا نحو موضع آخر أخبرهم بأن الله مختبرهم.

ما ماهيّة هذا الاختبار؟

قال طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي: إن الله مختبركم بنهر ستمرّون به في طريقكم، وأنتم في شدّة العطش ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي: قال طالوت: من يشربُ من هذا النهر فأنا بريءٌ منه، وهو

ليس من أهل ولايتي وطاعتي، وصار كذلك عاصيًا، فلن يتبعنا لمعصيته أوّلًا، وعدم ثباته ثانيًا.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي: ومَنْ لم يذق منه شيئًا فإنه سيكون من جند الله المقاتلين معي، ومن أهل ولايتي وطاعتي، ثم استثنى وقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ (البقرة :٢٤٩) أي: ما عدا مَنْ اغترف غرفة قليلة بيده؛ ليدفع بها عطشه، ويبل بها ظمأه.

لِمَ أراد الله أن يختبرهم؟

ليتميزَ الصادق من الكاذب، والصابر من الجازع، وسيترتب على ذلك مَنْ يصحب الجيش حيث وجهته، ومَنْ يفارقه، كونه ليس أهلًا للجهاد في سبيل الله.

وتأمّل – يا رعاك الله: كيف تكون مصافي الاختبارات في معترك الجهاد في سبيل الله**!!** حتى يكون الذي يرفع راية الجهاد من يستحقّ أن يرفعها حقًّا، وهم المؤمنون والمأمونون على رفعها في أشدّ الميادين صعوبة.

هكذا كانت ماهيّة هذا الاختبار أنهم سيمرّون بنهر عذب، وهم شديدو العطش، فمن يضعف ويشرب منه فقد رسب في الاختبار، بينما مَنْ لم يذق منه شيئًا إلّا غرفة واحدة بيده فقد نجح في هذا الاختبار.

نتيجة هذا الاختبار:

قال تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة :٢٤٩)

قال قطب: " شربوا، وارتووا، فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، تُبل الظمأ، ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلّف**!!**

انفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم، انفصلوا عنه لأنّهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه، وكان من الخير، ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنّهم بذرة ضعف، وخذلان، وهزيمة، والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الحازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق." (سيد قطب: ١٩٨٦)

لله درُّ هذا الاختبار!!

فقد اختبر الجيش حتى يستخلص منه الرجال وأي رجال، يستخلص الرجال الذين على أيديهم تفتح البلاد والعباد.

الحاصل: لم يبق مع طالوت إلّا نزرًا قليلًا، وهم الذين وصل بهم طالوت الى ساحة القتال.

وصدق شوقي:

إنَّ الذي خَلَقَ الحَقيقةَ عَلْقَمًا لم يخلِ مِنْ أَهْلِ الحَقيقةِ جيلا

كم كان عدد هذه الفئة؟

ذُكر: أن عددهم كان أربعة آلاف رجل، وهذا غير صحيح.

حيث الصحيح: أن عددهم كان بضعة [1] عشر وثلاث مئة رجل، فقد روي عن البراء بن عازب أنه قال: **حَدَّثني أصحابُ محمّدٍ – صلى الله عليه وسلم – ممّا شَهِدُوا بَدْرًا: أنَّهم كانوا على عِدّة أصحاب طالوت الذين جاوزا معه النهر، بضعةَ عشرَ وثلاثَ مئةٍ، قال البراءُ: لا واللهِ، وما جاوزَ معه النهرَ إلّا مؤمنٌ.**" (رواه البخاري: ٣٩٥٧ – ٣٩٥٩)

طالوت والفئة القليلة المؤمنة في أرض المعركة:

وصل طالوت بهذه الفئة القليلة المؤمنة أرض المعركة، وما أن وطئ طالوت وجنده المؤمنون أرض المعركة إلّا أنهم لمحوا من عدوّهم بأسًا شديدًا، وجهوزيّة للقتال عالية!! أضف إلى كل ذلك لمحوا رجلًا عظيم البأس، شديد المهابة، مرهوب المكانة، لمحوا جبّارًا عنيدًا اسمه جالوت!!

ما أن رأى جند طالوت هؤلاء الجبّارين بقيادة جالوت الجبّار العنيد إلّا أنهم انقسموا شعبتين:

---

[1] – البضع: ما بين الثلاثة والتسعة غالبًا.

الشعبة الأولى: خارت قوّتُهم، وانخلعت أفئدتهم، وتخاذلت نفوسهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ (البقرة:٢٤٩) أي: لا قدرة لنا على قتال هؤلاء القوم الأشداء، لا سيما وملكهم هذا الجبّار العنيد؟!

ويبدو أنهم قد شاهدوا أعدادًا هائلة، وتجهيزًا حربيًّا عاليًا؛ لذا لم يلمهم طالوت على ذلك الخور والضعف.

أمّا الشعبة الثانية: ظلَّتْ صابرة محتسبة، وهم الذين عَمَرَ الإيمان قلوبهم، وسَكَنَ حبُّ الإسلام في نفوسهم، واشتاقت أرواحهم للشهادة في سبيل الله، فاستحقوا أن يصفهم الله بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

فلم تزعجهم كثرة عدوّهم، ولا بأسهم، ولم تردعهم قلّة عددهم، وضعف سلاحهم، بل حفزوا طالوت وجنده بكلمات مضيئة ثابتة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩) أي: ما أكثر ما تغلب الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضرّ القلّة مع توفيقه، وذلك كله بقدر الله تعالى وإرادته، فعدلوا النظرة لأسباب النصر والهزيمة.

ثم ختموا مقالتهم بـ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩) وما أجمل أن تُختم مقالتهم الصادقة المؤمنة بذكر معية الله تعالى للصابرين!

حيث إن في ذلك إشارةٌ لطيفةٌ إلى أن المعارك يفوز فيها الأقدر على الصبر؛ لكون الله تعالى معهم بعونه وتأييده.

الشعبة الثابتة تغير دفة المعركة:

وقعت هذه الموعظة الصادقة المشفقة في قلوب الجيش موقعًا حسنًا، وأثرت فيهم تأثيرًا إيجابيًّا عجيبًا، فتوافق الجميع على المنازلة، وقالوا بثقة وتوكل: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ (البقرة: ٢٥٠) أي: قو قلوبنا – يا الله – وألهمنا الصبر والثبات ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ (البقرة:٢٥٠) أي: وثبتنا في أرض المعركة، فلا نفرّ إن لقينا

عدوّنا ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة :٢٥٠) أي: حقّق لنا يا الله، طلبنا بالظفر على مَنْ كفر بك، وهم جالوت وجنده!!

وتأمّل – وفقك الله للحق: شملت دعوة جيش طالوت ثلاث دعوات جامعات لإدراك أسباب النصر، هي: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ (البقرة:٢٥٠)، ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ (البقرة:٢٥٠)، ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة :٢٥٠)، وذلك لتأكيد أن دعاءهم ليس مجرد طلبًا مجردًا بلا سبب أو عمل منهم، لله درُّهم أحرارًا كرامًا أبطالًا!!

وتمضي قصّة الثبات والإيمان، فإذ بالشعبة التي ظلَّت ثابتة أمام مشهد كثرة جند جالوت وقوّتهم، هي التي ترسم نهاية المعركة، حيث رسمتها باللون الأحمر، لون الشهداء والأشلاء، رسمتها بريشة الإيمان، والصبر، والثبات، رسمتها، ورسمت نهايتها بأنّ العاقبة تكون فيها للجيش المؤمن، وذلك كلّه كان بإذن الله وعونه، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٥١) أي: استجاب الله دعاءهم، فغلب طالوت وجنده المؤمنون جيش جالوت وجنده الكافرين بتأييد من الله ومعونته.

قتْل جالوت:

من سنن الله في كونه أن يجعل سبحانه لكل مخلوق نهاية، وأن يجعل لكل طاغية حدًّا وكفاية، وهكذا كان الحال مع الطاغية جالوت!!

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ (البقرة :٢٥١) فيصوّرُ لنا القرآن ذلّ هذا الطاغية جالوت ونهايته، حيث قتله جنديٌّ مؤمنٌ من جيش طالوت اسمه داود.

كم كان عمر داود عندما قتل جالوت؟

ذكر المفسرون كان داود حينها حدثًا صغيرًا، وما ذكروه لا دليل عليه؛ لذا الصواب عدم القطع بسنّ داود عند قتله جالوت، وإن كان الذي يترجح أنه قد كان شابًا؛ لأنّ قتل جبّار قوي مثل جالوت يتطلب أن يكون قاتلُه شابًا جلدًا قويًّا، والله أعلم بالصواب.

كيف قتل داود جالوت؟

قصّة قَتْلِ داود جالوت من القصص التي خاض فيها اليهود – أيضًا – خوضًا كثيرًا، وذكروا فيها أخبارًا عجيبة غريبة، وقد تسلّلت هذه الأخبار الإسرائيليّة العجيبة إلى كتب التفسير، فقد ذكر الثعلبي، والبغوي، والسيوطي، وغيرهم، ما خلاصته: أنه قد عبر النهر فيمن عبر مع طالوت رجلٌ يقال له: (إيشا)، وكان لإيشا أولاد كثر منهم داود، وكان داود أصغرهم، ولمّا اصطّف جيش طالوت وجالوت، سأل جالوت المبارزة، وكان جالوت رجلًا شديد البأس، فهابه جنود طالوت، فشقّ ذلك على طالوت، فوعد مَنْ يقتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويناصفه ملكه، ولكن لم يقدم أحد للمبارزة، فسأل طالوت نبيّهم أن يدعو الله لإيجاد مَنْ يقاتل جالوت.

واخترعوا قصّة أسطوريّة عجيبة حول الفارس الذي يصلح لمنازلة جالوت، وهي: أن هذا الجندي الذي سينازل جالوت هو مَنْ يوضع على رأسه قرن، فيغلي الدهن الذي فيه، حتى يدهن منه رأسه، ولا يسيل على وجهه، بل يكون كالإكليل، فمَنْ يحدث هذا معه يكون هو ذلك الشخص المطلوب!

فكان هذا الشخص هو داود، فانتدب داود لقتال جالوت، فأعطى طالوت داود فرسًا ودرعًا وسلاحًا، فلبس داود الدرع، وركب الفرس، وحمل السلاح، وسار قريبًا، فما كان من داود إلّا أن نزع الدرع، وترك السلاح، ونزل عن الفرس، وقال لطالوت: إن لم ينصرني الله لم يغن هذا عني شيئًا!! فدعني أقاتل جالوت كما أريد، فقال له طالوت: افعل ما تشاء!

وذكروا في قتال داود لجالوت أخبارًا عجيبة: أن داود أثناء سيره مع الجيش ناداه ثلاثة أحجار، كل حجر يقول: احملني، فحملها في مخلاته، وذكروا أن داود كان يحسن الرمي بالمقلاع، فلا يخطئ أبدًا.

وفي يوم المنازلة والمبارزة أخذ داود مخلاته وفيها الأحجار الثلاثة، وتقلّدها، وأخذ المقلاع، ومضى نحو جالوت، وبعد محاورة بينهما، وتَوَعّد كل منهما للآخر، أخرج داود حجرًا من مخلاته، ووضعه في مقلاعه، ثم أخرج الثاني، ثم الثالث، فصارت كلها حجرًا واحدًا!!

وإن تعجب فالعجب من خرافة تحوّل الأحجار الثلاثة لحجر واحد!!

فدوّر داود مقلاعه، ورمى به، فسخر الله له الريح، حتى خلص الحجر إلى دماغ جالوت، فخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلًا، فهزم الله الجيش، وخرّ جالوت قتيلًا، فتلألأ اسم داود بين بني إسرائيل، فحسده طالوت على ذلك، وعزم على قتله، ولكن داود استطاع أن يهرب من طالوت واختفى!!

فطعن الناس على طالوت بسبب أمر داود واختفائه، فأسرف طالوت في قتل العلماء والعباد، ثم أوقع الله التوبة في قلب طالوت، وندم على فعله، ووَسّدَ الأمر لداود!!

إلى غير ذلك من الأخبار الغريبة العجيبة، ولله درّ أبو شبهة حينما قال: " وفي هذا الذي ذكروه الحقّ والباطل، والصدق والكذب، ونحن في غنية عنه بما في أيدينا من القرآن والسنّة، وليس في كتاب الله ما يدلّ على ما ذكروه، فلا تلق له بالًا، وارم به دبر أذنيك، فإن فيها تجنّيًا على من اصطفاه الله ملكًا عليهم، وكذبًا على نبي الله داود." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

الحاصل: قتلَ داودُ جالوتَ، قُتِلَ رمز الظلم والطغيان!

وفي قتل داود جالوت دلالاتٌ عظيمةٌ أشار إلى بعض منها ابن كثير: " وفي قتل داود جالوت دلالة على شجاعة داود – عليه السلام، وأنه قتله قتلًا أذلَّ به جنده، وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها مَلك عدوّه، فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحقّ على الباطل وأوليائه." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

انتهت قصة طالوت وجالوت ووصلنا إلى فوائدها البديعة الرائعة!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– من حكمة القائد، وحسن حنكته القيادية اختبار قدرات جنوده المعنوية، ومدى قوّة تربيتهم الإيمانية.

قال سيد قطب: " إن الحماسة الجماعيّة قد تخدعُ القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محكّ التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

فقد تقدّم الملأ من بني إسرائيل – من ذوي الرأي والمكانة فيهم – إلى نبيّهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكًا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، الذين سلبوا مُلكهم، وأموالهم، ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.

فلمّا أراد نبيّهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم عن القتال، وقال لهم: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ (البقرة: ٢٤٦) استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصّة، وكما يقول السياق بالإجمال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (البقرة :٢٤٦)

ومع أن لبني إسرائيل طابعًا خاصًّا في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق، إلّا أن هذه الظاهرة ظاهرة بشريّة على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانيّة مبلغًا عاليًا من التدريب، وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل، فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل." (سيد قطب: ١٩٨٦)

– يجب على القائد منع من لا يصلح للحرب سواء كان مرجفًا، أو مخذولاً، أو غيرهما. [١]

– على القائد أن يختبر قدرات جنوده بما يراه مناسبًا مع المحافظة على كرامتهم، والبعد عن خدش عزتهم؛ لأن الكرامة إذا كسرت اتّصفوا بالمهانة والتعود عليها، والعزة إذا خدشت نزفت حتى يغرق الجندي في الذلّة، ولن يثبت في المعركة إلّا كريم عزيز، وأمّا من تعود على المهانة، وأشرب في قلبه الذلّة، فسيشتري الحياة بثمن بخس، ويكون

[١] – المرجف: هو من يخوّف المسلمين من قوّة عدوهم، أو عدده، أو استعداده، والمخذول: من يقول لن تنتصروا، أو رأيت في المنام هزيمتكم.

في وقت الشدّة من الذين يولون الدبر؛ لأنه اعتاد المهانة والذلّة، وتربى عليها، فهان عليه التولي والهزيمة.

– من لم يجاهد نفسه، وينتصر على شهواته ورغباته لا يمكن أن ينتصر على عدوّه.

– إن جنود طالوت اختبروا بنهر الماء المباح في شدّة العطش، وحاجتهم للشرب، فسقط في الاختبار جيش!! فكيف تنتصر أمة ترسب يوميًّا في اختبار الفرائض، والواجبات، وترك المحرمات، وهي لا تتضرر بفعل ما أمرت به، بل تنتفع، ولا تتضرر بترك ما نهيت عنه، بل تسلم وتغنم! إن حالنا في غاية الخطورة !

– إن الطائعين لله قليلون، بينما العاصون والمخالفون لشرع الله كثيرون ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ ؛ لذا على المؤمن ألَّا يغتر بكثرة الهالكين، ولا يهوله كثرة المعارضين للحقّ، والمخالفين له.

لا تخشَ كثرتهم فهم همج الورى وذبابه، أتخاف من ذبان؟!

– إن ثبات هذه الفئة القليلة (الضعيفة ماديًّا) أمام الفئة الكثيرة (القوية ماديًّا) آية عظيمة على وجود الله، وقدرته القاهرة، وحكمته العظيمة الباهرة، وأن هؤلاء الضعفاء القلّة لولا أن الله القوي العزيز أيدهم لما صبروا، وثبتوا صامدين؛ حتى انتصروا.

– إن البقاء والنصر يكمن لقوّة العقيدة الربانية، ويكون على قدر رسوخها في نفوس أصحابها، واستقرارها في قلوبهم، ولا بقاء، ولا نصر للقوّة الماديّة مهما انتفشت، وانتشرت، ما لم تقرن بالعقيدة الصحيحة.

– تبيّن القصّة دور الصادقين المخلصين الكبير والنافع في إصلاح الأمة الإسلامية، وثباتها على دينها، وصمودها في وجه عدوّها، ولهو دور مهم وخطير، انظر كيف حوّل هؤلاء الصادقون المخلصون دفة الحرب لصالح قومه ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإذا تخلى هؤلاء الربانيون عن مكانهم الصحيح، وتنازلوا عن منزلتهم اللائقة، وتركوا الفرصة للمتاجرين بقضايا الأمة الكبرى، وأمورها المصيرية، سيجد الرويبضة الفرصة للقفز على منابر التوجيه، وتسلق قمم القيادة، وهنا ستصاب الأمة بالهوان، والخزي، والتفرق، والتشرذم، وتألف حياة

الذلة، وتهتم بتوافه الأمور، وسافل الخصال، وتجدها تفتخر بالقعود في القيعان، بل تحارب الصعود إلى قمم المعالي.

– في القصّة دليل على أهمية الصبر، ووجوب اتّصاف المؤمن به، وأن الله قد فرض الصبر علينا؛ لأنه يعيننا على أمور الدين والدنيا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وجعل الله العاقبة الحسنة لأهله ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

أهمّية وجود سلطان للمسلمين:

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ (البقرة: ٢٥١)

قال ابن كثير: " أي: لولا إقامة الملوك حكامًا على الناس لأكل كل قوي الناس ضعيفهم، ولهذا جاء في بعض الآثار (السلطان ظلُّ الله في أرضه)، وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وممّا لا شكّ فيه أن مصالح الناس لا تستقيم إلّا بالاجتماع، والاجتماع مطلب ديني ودنيوي، ولا بدّ لهذا الاجتماع من قيادة، ورأس، ويظهر ذلك جليًّا من أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم: " **إذا خرجَ ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمروا أحدَهم.**" (رواه أبو داود: (٢٦٠٨)، والطبراني: (٨٠٩٣)، والبيهقي: (١٠٦٥١))

لذا تنصيب الحاكم، أو السلطان من أوجب الواجبات في الإسلام لمّا يترتب على ذلك من مصالح عظيمة، ودفع مفاسد عديدة، فلا قيام للدين إلّا به، ولا تنتظم الأمّة إلّا بسلطان مطاع، فلو ترك الناس بلا سلطان لصارت الحياة فوضى، لا يجمع الناس على الحقّ جامع، ولا يردعهم رادع.

فالغاية العظمي من وجود السلطان هو جمع الكلمة، ولمّ الشمل، وإقامة الدين وأحكامه، ورفع الظلم، ونشر العدل، وقمع الشرّ، وجهاد الأعداء، والحفاظ على حوزة البلاد.

لذا قال بنو إسرائيل لنبي لهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، وهذا الفهم قد عرفه الصحابة الكرام، فقبل دفن الرسول – صلى الله عليه وسلم – بادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليمه زمام الأمور.

o o o o

قصّة سُليمان مع ملكة سبأ

البداية:

قصَّ الله علينا في كتابه العزيز قصّة موغلة في القدم، قصَّ علينا قصّة تبرز اجتهاد الأنبياء والمرسلين في نشر الدين والتوحيد، ألا هي قصّة سُليمان العجيبة مع ملكة سبأ. [1]

وما اسم ملكة سبأ هذه؟!

أُشتهر أن اسم ملكة سبأ هذه هو (بلقيس)، فقد وردت آثار موقوفة، ومقطوعة تذكر أن اسم ملكة سبأ هو بلقيس، ومن ذلك: ما رواه الإمام ابن أبي شيبة بسنده عن ابن عباس: قال: اسمها بلقيس بنت ذي شيره، وروى الإمام ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن الحسن عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ (النمل: ٢٣) هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، ومثل هذه الآثار تكفي لإطلاق اسم بلقيس على ملكة سبأ، على كل حال الأمر في ذلك واسع سهل، والله أعلم.

وقصّة سُليمان مع ملكة سبأ، أو بلقيس قصّة بديعةٌ نافعةٌ للملوك، والعظماء، وفيها بيان واضح لسعة ملك سُليمان، وأبهة سلطانه، حيث امتدَّ سلطانه من فلسطين، وبلاد الشام إلى أقاصي اليمين جنوبًا، مرورًا بالعديد من البلدان والأمصار شرقًا وغربًا، ولم يكن هذا السلطان سلطانًا ظاهريًّا، وإنما كان سلطانًا حقيقيًّا دانت له هذه الأمصار والبلدان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبيّن لنا هذه القصّة اجتهاد سُليمان العظيم الجادّ في نشر التوحيد، التوحيد الذي كان قد أسسه قبله أبوه داود – عليهما السلام، فلم يترك سُليمان بلدًا، ولا مصرًا إلّا ودعا أهلها إلى التوحيد، ومن لم يجبه كان السيف هو الحكم الفصل، فانتشر التوحيد في أصقاع الأرض، وعمَّ أرجاءها.

---

[1] – سبأ: اسم لمملكة عربية يمينية قديمة، وقد اختلف حول وقت نشأتها، والمشهور أنها كانت موجودة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد على الأقل، والكثير من تاريخ هذه المملكة غامض.

فقدان سليمان الهدهد:

تبدأ هذه القصّة الشيقة بفقدان سُليمان – عليه السلام – هدهدًا كان من جملة جيشه، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ (النمل: ٢٠) أي: أخذ سُليمان – عليه السلام – يفتشُ في جماعة الطير – و(الطير) اسم جنس لكل ما يطير – فلم يجد الهدهد، فتساءل: ما لي لا أرى الهدهد؟!

ولِمَ افتقد سُليمان ذلك الهدهد؟

يذكر المفسرون: أن هذا الهدهد كانت وظيفته في جيش سُليمان الدلالة على وجود الماء، وقد صادف أن الجيش قد عطش، فسألوا سُليمان السُقيا، عندها طلب سُليمان الهدهد فلم يجده، فافتقده.

قال السعدي: " وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين: أنه طلبه؛ لينظر له الأرض، وبعد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل: وطلب الهدهد، بل قال: وتفقد الطير." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

لذا الصحيح – إن شاء الله – في سبب افتقاد سُليمان الهدهد هو: إن سُليمان كان مَلِكًا حازمًا شديد التفقد لجيشه، وأثناء جولته التفقديّة اليوميّة، لاحظ غياب الهدهد عن موقعه، والذي يبدو أن هذا الهدهد لم يكن هدهدًا عاديًا، إنما كان هدهدًا معينًا خاصًّا، بدليل مجيء ذكره في القرآن مُعَرّفًا، ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ (النمل: ٢٠)

وفي افتقاد سُليمان الهدهد نلمس صفة قياديّة عظيمة في سُليمان، وهي حسن تفقد سليمان لجنده، وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ (النمل: ٢٠) ألا تلمس تصويرًا بارعًا رائعًا، يشعرك بنبي الله سُليمان وهو شديد التفقد لأحوال رعيته، حتى أنه أثناء مروره اليومي افتقد طائرًا صغيرًا، وهو الهدهد!

وهكذا يكون الوَلي القوي الحصيف الذي تحفظ البلاد في عهده، وَوازِنْ بين سُليمان الملك القوي الحصيف المتفقد سلطانه وجنده، وبين الولاة المتخاذلين الذين تضيع البلاد على أيديهم!

لله درّك يا سُليمان حكيمًا حازمًا مهتمًا بأمر جيشك ودولتك!!

حتى أنك لاحظتَ غياب هذا الجندي الصغير من بين جيشك الكبير!!

فقلتَ مقولة الأذكياء العقلاء: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ (النمل: ٢٠)!!

وتأمّل: لَمْ يقل سُليمان: لِمَ الهدهد غائب؟ بل قال: ما لي لا أرى الهدهد!

وهذا إن دلَّ يدلّ على كمال عقله، ورجاحة فكره، فلم يعجل بعدم وجود الهدهد، فربما كان الهدهد موجودًا في مكان آخر، ولكن سُليمان لم يره فيه، وربما كان الهدهد موجودًا في موقعه غير أن نظر سُليمان قد أخطأه؛ لذا لم يجزم بغياب الهدهد، بل أرجع الأمر إلى أنه لا يراه.

سليمان يجزم بغياب الهدهد:

بعدما قال سُليمان: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ (النمل: ٢٠) يبدو أنه قد أمعن النظر، وزاد في التنقيب والبصر، حتى جزم بغياب الهدهد، وعدم وجوده، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ (النمل: ٢٠)، وأم هنا منقطعة، والمعنى: بل هو غائبٌ.

وتأمّل: كيف بدأ سُليمان – عليه السلام – في اتّهام نفسه أوّلًا، حيث قال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ (النمل: ٢٠)، ثم انتهى باتّهام الهدهد، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ (النمل: ٢٠)، وفي هذا إشارة لطيفة إلى خلقٍ عظيمٍ سامٍ، وهو: ما ينبغي أن يترك الإنسان المؤمن احتمالًا – ولو بسيطًا – لإدانة نفسه، قبل إدانة غيره.

توعّد سليمان للهدهد:

جزم سُليمان بغياب الهدهد بدون إذن، فعدَّ سُليمان ذلك الصنيع جرمًا خطيرًا من هذا الجندي؛ لذا هَدَّدَ الهدهدَ بالرغم من أنه غائبٌ، هَدَّدَهُ أمام جيشه، قائلًا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ (النمل: ٢١) أي: لأعاقبنه عقابًا أليمًا، أو لأذبحنه.

وتأمّل معي – رحمك الله – الصفة القياديّة الثانية لسُليمان، وهي الحزم:

فقد توعّد سُليمان الهدهد بهذا الوعيد الشديد بالرغم من أن جرمه قد لا يرقى إلى حجم هذا الوعيد؛ وذلك لأنّ في هذا الصنيع من الهدهد – وإن كان بسيطًا – ما قد يخلّ بالنظام العسكري لجيش سُليمان، وإن تهاون سُليمان في إيقاف مثل هذه التجاوزات البسيطة، ستتحول إلى خروقات خطيرة، قد تهدّد نظام الجيش وانضباطه كلّه للخطر والزوال، فكان من الحزم أن يعلن سُليمان أمام جيشه الكبير هذا الوعيد الشديد، لله درّك يا سُليمان حكيماً!!

إشكال: كيف استجاز سُليمان لنفسه أن يتوعّد الهدهد بذلك مع أن الهدهد غير مكلف؟!

قال الأنصاري: " توعّد سُليمان الهدهد بذلك، مع أنه غير مكلف، بيانًا لكونه خُصّ بذلك، كما خُصّ بتعلم منطقه." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

ولمّا كان ملك سُليمان قائمًا على كمال الحكمة والعدل، استثنى – عليه السلام، وقال: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ (النمل:٢١) أي: سأصرف عنه ذلك العذاب والذبح في حال إتيانه بحجة قاطعة معذرة توضح سبب غيابه.

وتأمّل حسن التدرج في العقوبة التي توعّد بها سُليمان الهدهد، حيث بدأ بالأشدّ إلى الخف، وانتهاء بالعفو التامّ، فمن العذاب الشديد إلى الذبح إلى العفو الشامل إذا جاء بسلطان مبين، وفي ذلك دليل على كمال إيمان سُليمان وصدقه، حيث لم يترك نفسه للانفعال الشديد، بل تَروى حتى يصل إلى العفو السديد!

وفي هذا التصرّف من سُليمان تعليم للناس ما يجب أن يكون عليه العبد خاصّة المسلم، ألّا يترك انفعاله يتحكم فيه بطريقة هوجاء، بل هو الذي يتحكم فيه؛ ليصل إلى العفو الكريم، عفو القادر على إيقاع العقوبة، لله درُّه نبيًّا كريمًا عفوًّا!!

تساؤل: كيف صحَّ لسُليمان أن يحلف على أحد ثلاثة أشياء معًا: تعذيب الهدهد، وذبحه، وصرف ذلك عنه إذا أتى بالعذر؟!

قال الزمخشري: " لمّا نظم الثلاثة بأمر في الحكم الذي هو الحلف آلَ كلامُه إلى قولك ليكونن أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بسلطان لم يكن تعذيب، وذبح، وإن لم يكن كان أحدهما." (محمّد الصابوني)

تساؤل آخر: من أين درى سُليمان أن الهدهد سيأتيه بسلطان حتى يقول: ﴿أَوَ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ (النمل: ٢١)؟

سُليمان – عليه السلام – حكم على الهدهد إن لم يأتِه بسلطان وقع التعذيب، أو الذبح، وليس في هذا الحكم ادّعاء، أو دراية بأنه سيأتيه بالسلطان، كل ما في الأمر أنه علق ذلك الحكم عليه إن وقع منه دونما أن يعتقد حصوله منه.

ظهور الهدهد غير البعيد:

لم يطل غياب الهدهد، بل ظهر بعد زمن يسير، قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ (النمل: ٢٢) أي: غاب الهدهد فترة ثم ظهر بعد ذلك. [١]

وتأمّل – وفقك الله للحقّ: الهدهد الذي خلّفه العذر الواضح لم يستطع أن يغيب إلّا فترة زمنية يسيرة، وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ إلى الصفة القيادية الثالثة التي كان يتمتّع به سُليمان، وهي: صفة الهيبة، وشدّة ائتمار جيشه لأمره.

جئتك من سبأ بنبأ يقين:

ما أن ظهر الهدهد ورآه سُليمان حتى سأله سُليمان عن سبب غيبتِه، فما كان من الهدهد بدوره إلّا أن أخبر سُليمان بخبرٍ عجيبٍ قدّم له بمقدّمة مشوّقة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢) أي: إن كنت تبحث عني فإني قد اطّلعت على شيء، لا تعلمه أنت، فقد جئتك من سبأ بخبر خطير الشأن، وأنا منه على يقين، وفي هذا القول بيان لفضل العلم، فالعلمُ فخرٌ لصاحبه، كما أنه نفع الهدهد، فكان العذر المقبول الذي نجا بسببه من الذبح، أو التعذيب.

فَأَنْعِمْ بالعلمِ!!

---

[١] – وقيل: إن سُليمان هو الذي مكث فترة، ثم بعد ذلك ظهر له الهدهد، والصواب الأوّل، والله أعلم.

لطائف في قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢):

– قوله: (أحطت) فيه إشارةٌ لطيفةٌ أنه شاهد، وسمع، ثم فهم، وأخيرًا حلّل حتى أحاط بالموقف علمًا وفهمًا، وهذا ما دلت عليه جملة (أحطت) أي: أحاط به إحاطة شاملة لجميع جوانب النبأ الذي جاء به، دون أن يترك فيه ثغرة.

– قوله: (بما لم تحط به) جَزْمٌ من الهدهد أن سُليمان لم يحط بخبره.

– قوله: (جئتك) فيه إشارةٌ لطيفةٌ أن نبأه يذاع لأوّل مرّة عند سُليمان، كما يقال في علم الصحافة: سبق صحفي، فجملة (جئتك) تدلّ على إحضار المعلومات من مكان خارج عن محيط سُليمان، ومكانه الحالي.

– قوله: (من سبأ) فيه تحري دقيق، وبحث عميق، حيث إنه عرف اسم البلدة.

– قوله: (نبأ) بدلًا من (خبر) كان اختيارًا موفقًا من الهدهد؛ لأنّ لفظ (نبأ) أبلغ في الصدق من لفظ (الخبر)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لفظ (النبأ) يشعرك بأنه يروي أحداث عظيمة مهمة متتابعة، وتهمُّ المستمع.

– وصف النبأ بأنه (نبأ يقين) يدلُّ على شدّة تيقّن الهدهد من صحة الأخبار والمعلومات التي سيذكرها.

– وأخيرًا تسمى هذه المقدّمة في علم الصحافة بالمقدّمة القنبلة، حيث تطغى هذه المقدّمة على كل المسائل السابقة، وتضمّن حسن إصغاء المستقبل.

وبالفعل استطاع الهدهد أن يمتصَّ بهذه المقدّمة المشوّقة القنبلة غضب سُليمان عليه، حيث طغت مقدّمتُهُ القنبلة هذه على مسألة غيابه، وفي نفس الوقت ضمنت له حسن إصغاء سُليمان له؛ لذا حسُن بعدها أن يخبره الهدهد بخبره العجيب، وهو: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٦﴾ (النمل: ٢٣ – ٢٦)

وإليك تفصيل هذه الأخبار العجيبة!!

الخبر الأوّل: حكم بلقيس (المرأة) لقومها:

أخبر الهدهد سُليمان: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ (النمل: ٢٣) أي: وجدت قبيلة عظيمة بعيدة اسمها (سبأ)، تحكمها امرأة تسمى (بلقيس)، وتتصرّف في أمرهم كيفما تشاء التصرّف، ودونما معترض يعترض عليها، ولا منافس ينافسها، ويبدو من كلام الهدهد التعجب والاستغراب من ذلك، **فَلِمَ تعجب الهدهد من ذلك؟**

قال الصابوني: " لأنّ الملوك عادة من الرجال، وأن النساء لا يَصْلِحْنَ لإدارة الممالك، ويؤيده حديث: " **لن يفلحَ قومٌ ولّوْا أمرَهم امرأةً.** [1]"، وهذا هو الفطرة." (محمّد الصابوني)

ويحتمل أن تعجبه كان بسبب انقياد قومها الشديد لها.

على كل حال تعجب الهدهد من أن التي تملكهم امرأة.

الخبر الثاني: عظم مُلك بلقيس:

يبدو أن بلقيس كانت ملكة عظيمة، وهذا ما أخبر به الهدهدُ سليمانَ، وممّا يدلّك على عظمة ملكها ما يأتي:

– ما أخبر به الهدهد، حيث قال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النمل: ٢٣) أي: " أعطيت من كل الأشياء التي يحتاجها الملوك من أسباب الملك، نحو: الرجال، والمال، ووفرة السلاح، وغيرها." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وتأمّل بلاغة الآية حيث عبّرتِ عن أشياء كثيرة عن ملكها، بكلمات قليلة موجزة.

[1] – رواه: البخاري: (٤٤٢٥)

تساؤل: كيف ساوى القرآن بين قول سُليمان عن نفسه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ١٦)، وبين بلقيس في قول الهدهد عنها: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣)؟

قال الأنصاري: " الفرق بينهما أنها أوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا فقط؛ لعطف ذلك على (تملكهم)، وسُليمان أُوتي من كل شيء من أسباب الدين والدنيا؛ لعطف ذلك على المعجزة، وهي منطق الطير." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

-وممّا يدلُّك – أيضًا – على عظمة مُلك بلقيس قول الهدهد: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٣) أي: لها كرسيٌّ عظيمٌ فخمُ تجلس عليه، وعِظَمُ العروش دليلٌ على عظمة المملكة، وغناها، وترفها، وتقدّم الحياة عامّة فيها، لا سيما الحياة الصناعيّة.[١]

تساؤل: ما المقصود بوصف عرشها بأنه عظيم؟

أي: عظيم بالنسبة إلى أمثاله من عروش الدنيا.

الخبر الثالث: وثنية بلقيس وقومها:

نكمل تفصيل أخبار الهدهد العجيبة مع سُليمان، فبعدما أخبره عن حكم هذه المَلكة لقومها، وعن عظمة مُلكها، أخبر سُليمان بخبر جدَّ خطير، وهو: أن هذه المَلكة وقومها وثنيون، وجهة وثنيتهم كانت من جهة الشمس، حيث كانوا يعبدونها، ويسجدون لها من دون الله، قال الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: ٢٤ – ٢٦)

[١] – وفي عصرنا الحالي تتّخذ الدول القصور الرئاسية دليل على عظمتها، وقوتها، وغناها.

أي: وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس معرضين عن عبادة الله، وقد حسّن الشيطان أعمالهم السيئة التي كانوا يعملونها، فصرفهم عن الإيمان بالله، فهم لا يهتدون إلى الله وتوحيده، قال الهدهد ذلك، وهو متعجب، كيف لا يسجدون للذي يخرج الخبء (أي: المخبوء المستور) في السماوات والأرض من المطر، والزرع، وغير ذلك، ويعلم ما تسرون وما تظهرون؟! فهلا سجدوا لله الذي لا معبود يستحقُّ العبادة سواه، وهو ربُّ العرش العظيم.

وما أن سمع سليمان هذا العذر من الهدهد إلّا أن ظهرت صفة قيادية رابعة لسُليمان، وهي قَبولُه عذر المعتذر.

لطيفة: في اختيار الهدهد كلمة (الخَبْء) دون سائر أخواتها فيه إبداعٌ بلاغيٌ طريفٌ، حيث تبرز اللفظة قدرة الله وعظمته أكثر من أي لفظة غيرها.

كما في اختياره (يسجدون للشمس من دون الله) فيها إشارة لطيفة إلى أن العبادة لا تحقّق إلّا بالسجود لله وحده، وخُصّ السجود بالذكر كون السجود أصل العبادة.

وقفةٌ يسيرةٌ في أخبار الهدهد لسُليمان:

الهدهد أنبأ سُليمان بأخبار مهمة، وقد جاءت أخبارُه على شكل نوعين من الأخبار:

النوع الأوّل: أخبارٌ محسّةٌ تدرك بالحواس، وهي:

- أنه وجد امرأة تملكهم.
- أنه حدّد العلاقة الإداريّة بين هذه الملكة وشعبها، حيث إنها ليست ملكتهم وحسب، بل تقودهم، وترأسهم، وتملكهم.
- أوتيت من كل أسباب المُلك القوي.
- لها عرش عظيم.

وكما ترى كل هذه الأخبار تدرك بالحواس.

النوع الثاني: أخبارٌ خفيّةٌ غير مدركةٍ بالحواس، وإنما تدرك بالعقل، وهي:

- إخباره بأنهم يسجدون للشمس من دون الله، وهذا خبر لا يدرك بالحواس، وإنما يدرك بالعقل، فأنت لا تستطيع أن تميّز بمجرد النظر لقوم يسجدون، أهُمّ يسجدون لله أمْ

للشمس؟! وهل يسجدون اعتقادًا أم هل يسجدون كرهًا؟ وهل يسجدون نفاقًا أم هل يسجدون إخلاصًا؟ فكل هذه الأشياء لا تدرك بالنظر وحده، وإنما تدرك بالعقل.

– إخباره أن الشيطان هو الذي صدَّهم عن السبيل، وهي أخبارٌ لا تدرك بالحواس، وإنما تدرك بالاطّلاع على مخبوء العقل.

– إخباره أنهم غير مهتدين، وتميّز الهدى من الضلال يدرك بالعقل لا بالحواس.

وفي تنويع أخبار الهدهد وكفايتها مهارة واحتراف من الهدهد، وكأنه خبير استخباراتي عسكري، حيث كان تقريره وافيًّا وشاملًا، ومكّن قائده من اتّخاذ القرار الصواب على ضوئه.

أَخْذُ سليمان أخبار الهدهد محمل الجدّ:

ما أن سمع سُليمان هذا الخبر من الهدهد حتى أخذه مأخذ الجد، كما أخذه الهمُّ كل الهمّ، فكيف يكون في هذه الدنيا من يعبد غير الله تعالى وهو حيٌّ موجودٌ؟!

الحاصل: لم ينتظر سُليمان طويلًا حتى يتأكد من صدق الهدهد أو عدمه، بل اكتفى أن يقول له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (النمل: ٢٧) أي: " (سننظر) من النظر الذي هو التأمّل والتصّفح." (القرطبي: ٢٠٠٢)

والمعنى: قال: لن نحكم عليك بالصدق، أو بالكذب؛ حتى نستوضح أمرك.

وتأمّل – وفقك الله للحقّ: نبي الله الحكيم سُليمان – عليه السلام، لم يتسرع في تصديق الهدهد، ولم يكذبه، ولم يخرجه النبأ العظيم الذي جاء به الهدهد عن اتزانه، وإنما بنى أحكامه على ما سيسفر عليه تحقّقه من صدق خبر الهدهد أو كذبه، وهذا اللائق بشأن النبي الحكيم سُليمان – عليه الصلاة والتسليم.

وهذه صفةٌ قياديةٌ خامسةٌ وهي الاتزانُ والتروي عند اتّخاذ الأحكام والقرارات!

ولعلّك تتساءل: سُليمان لم يظهر له دليل على صدق الهدهد أو كذبه، فكيف جاز أن يشكَّ في خبره؟ قال ابن الجوزي: " لأنّه أنكر أن يكون لغير الله سلطان." (محمّد الصابوني)

اذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم:

كلف سليمان الهدهد بمهمة توصيل كتابه إلى بلقيس وقومها، حيث قال: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النمل: ٢٨) أي: خُذْ أيُّها الهدهد هذا الكتاب، واذهب به، فألقه إلى هؤلاء القوم الكافرين، وفي هذا الأمر اختبار عملي للهدهد أصادق أم كاذب؟

يا للعجب!! أعطى سُليمان الهدهد الكتاب لهؤلاء القوم الوثنيين بالرغم من أنه لم يقطع بصدقه؛ وذلك لحرصه الشديد على نشر التوحيد.

كيف حمل الهدهد كتاب سُليمان؟!

قال ابن كثير: " إن الهدهد حمله بين جناحه كما هي عادةُ الطير، وقيل بمنقاره." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وما ذكره ابن كثير – رحمه الله – لا دليل شرعي صحيح عليه، ويبدو أنه مأخوذٌ من الإسرائيليّات، والصواب أن يقال: حمل الهدهد الكتاب بآلية لا يعلمها إلّا الله وحده.

على كل حال حمل الهدهد الكتاب، وطار به إلى مملكة سبأ الوثنيّة، وما أن وصل الهدهد أرض سبأ ألقى إليهم الكتاب.

كيف ألقى الهدهد الكتاب إليهم؟!

يذكر المفسرون: أن الهدهد أخذ الكتاب، ولمّا وصل الى سبأ، رفرف فوق رأس بلقيس، ثم ألقاه في حجرها.

وهذا يبدو من زيادات بعض المفسرين غفر الله لهم، فلم يرد في القرآن، ولا في السنّة الصحيحة ما يدلُّ على ذلك، والذي يظهر أنه كان إلقاءً عاديًا بدون هذه الزيادات العجيبة، والله أعلم.

على كل حال ألقى الهدهد الكتاب إليهم، ثم استأخر عنهم، كما طلب منه سُليمان ذلك: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ (النمل: ٢٨) أي: ثم استأخر عنهم، وتنحى إلى مكان غير بعيد مستترًا عنهم.

والعجب: لِمَ طلب سُليمان من الهدهد ذلك؟!

يحتمل ليترك لهم فرصة للتشاور في الردّ على هذا الكتاب، بدون أي تشويش، أو بلبلة فكر؛ ولذا قال سُليمان له: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٨) أي: انتظر بما يجيبون عليه!

إذا الهدهد تأخّر عنهم كيف سيعلم جوابهم؟!

قال الأنصاري: " معناه: تولَّ عنهم يسيرًا، حيث لا يرونك، فانظر ماذا يرجعون؟" (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

فطنة سُليمان في اختياره الهدهد من بين سائر الطير لحمل الكتاب:

كان اختيار الهدهد من بين سائر الطير لهذه المهمة اختيارًا موفقًا، حيث إن الهدهد هو الذي أخبره هذا النبأ، وبالتأكيد سيكون (هو) الأعرف بمحلّهم، والطرق المفضية إليهم، كما ويبدو أن هذا الهدهد كان من نوع خاصّ، وتمَّ تربيته، وتدريبه بعناية فائقة، ودلّ على ذلك تعريف (الهدهد) بـ (أل) التعريف، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، بيّنت الدراسات الحديثة: أن الهدهد أكفأ الطيور في نقل الرسائل، والاتّصال والتواصل؛ لأنّه أسرعها، ولا يحتاج إلى جماعة من جنسه عند طيرانه، ويمتز بقوّة الدفاع عن نفسه، ثم هو يتحمل الجوع والعطش أكثر من غيره من الطيور، فضلًا عن تميّزه بذكائه المشهور.

وفراسة سليمان في حسن اختيار الهدهد لهذه المهمة تدلّنا على الصفة القيادية السادسة لسليمان – عليه السلام – وهي اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب!

الحاصل: نَفَّذَ هذا الجندي المخلص أمر قائده، حيث حمل الكتاب الكريم، وطار به المسافات الشاسعة إلى سبأ، وألقاه إليهم.

وفي تصرف الهدهد السابق بيع نفسه لله تعالى فيما لا يخفى، حيث من الوارد جدًّا أن يلقى الهدهد حتفه في هذه المهمة، وفيه شدة ائتماره لقائده، ويذكرنا هذا بصنيع الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق، عندما أمره الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيه بخبر قريش، فنفذ الأمر مع شدة خطورته!

اجتماع طارئ عاجل:

تفاجأت بلقيس بهذا الكتاب الكريم، ولعظم أمر ذلك الكتاب، ورجاحة عقلها، لم تُرِدْ أن تستبدَّ بالإجابة عليه بمفردها، فعقدت اجتماعًا عاجلًا، وما أن اكتمل حضور المؤتمرين من ملئها أخذت تعرض الكتاب عليهم، قائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٢٩) أي: جاءني كتاب كريم، ووصفها له أنه كريم يدلّ على رزانة عقلها، **وكيف لا يكون كريمًا؟** وهو به كلام كدُرر عظيم القدر والشأن، أضف إلى ذلك أنه من أعظم ملوك الدنيا على الإطلاق.

ثم بيّنت بلقيس مضمون هذا الكتاب لقومها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠) أي: إنه كتاب مرسل من سُليمان يبدأ بالبسملة، ثم أطّلعتهم على ما فيه من وعيد شديد، وتهديد أكيد: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ (النمل:٣١) أي: فيه أمر لنا ألّا نكون فوقه، ونخضع لسلطانه، وننقاد لأمره، ونقبل إليه مسلمين.

لطيفتان: اللطيفة الأولى: حمل هذا الكتاب الذي أرسله سُليمان بدائع وفرائد، منها:

-بدأ باستهلال رائع، واستفتاح بارع، وهو البسملة حيث فيها الإعلان لربوبيّة الله تعالى لجميع المخلوقات بما فيها هُم بالطبع؛ لذا سنَّ استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم اسم الله في أوّل عنوان الكتب.

- جمع الكتاب غاية الإيجاز مع تمام البيان.

اللطيفة الثانية: قدّم سُليمان في هذا الكتاب الذي أرسله إليهم اسمه على اسم الله، مع أن المناسب عكسه، فكيف استجاز سُليمان لنفسه ذلك؟

قال الأنصاري: " لأنّه عرف أن بلقيس تعرف اسمه، دون اسم الله تعالى، فخاف أن تستخف باسم الله – تعالى – أوَّلَ ما يقع نظرها عليه، أو كان اسمه على عنوان الكتاب، واسم الله في باطنه." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

التشاور في الردّ على كتاب سليمان:

نعود – والعود أحمد – إلى الاجتماع العاجل الذي عقدته بلقيس؛ لنعلم ما جرى فيه من حوار ومقال، فبعد أن بيّنت مضمونه، وشرحت ما بين سطوره، قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (النمل: ٣٢) أي: قالت: يا أيُّها الأشراف أشيروا علي: ما الذي تقترحون فعله فيما سمعتم؟ فأنا لم أقطع أمرًا يخصُّ شؤون المملكة إلّا بعد استشارتكم.

يا الله!! ما أحزمكِ!! وما أرجح عقلكِ!! حيث أدركتِ أن هذا أمر جلل خطير يحتاج إلى جميع العقول والسواعد؛ ليكون رأيهم رأيًا واحدًا متوافقًا من الجميع.

الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين:

سمع قومُها مقالتها، فأخذتهم العزّة بالإثم، وثارت فيهم الحماسة والعنف، فقالوا لها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل :٣٣) أي: قالوا لها: نحن – كما ترين – ذوو القوّة على القتال، والبأس الشديد في الحرب والسجال، والأمر إليك أيتها الملكة، في اختيار قرار الحرب أو السلم، وما تتخذين من قرار فنحن سننفذه.

وفي انقياد قوم بلقيس لها أمر عجيب، حيث هي سيدة، وهم رجال، وأي رجال! رجال ذوو قوة وبأس، **فكيف انقاد هؤلاء الرجال الأشداء لهذه الملكة الأنثى، وأطاعوها تمام الطاعة؟!**

يحتمل أنهم لمسوا منها حسن التدبير والتفكير، وجربوها في مواقف ذات إشكالات ومعضلات، فنجحت فيها بامتياز وتفوقات، ويحتمل أنها أحسنت سيرتها معهم عدلاً، وقسطًا ورعاية، وتذمّم، فقابلوا حُسْن رعايتها لهم بحُسْن طاعتها منهم.

ويحتمل أنها لما كانت تشاور قومها في كل ما يعرض لها، قابل قومها احترامها لهم بأن سلموا الأمر إلى نظرها، وانقادوا لرأيها.

على كل حال سلّم القوم أمر الردّ على كتاب سُليمان لرأي ملكتهم بلقيس، ولمّا كانت بلقيس ملكة ذكيّة عاقلة، نظرت في الأمر بعين الفطنة، ولم تغترّ بما أبداه

رجالها من قوّة وحماسة، فرتبت لهم رأيها أحسن ترتيب، حيث بدأت بتزيف ما ذكروه، وأرتهم الخطأ فيه، فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ (النمل: ٣٤) أي: إنّ دخول الملوك إلى المدن ليس بالأمر اليسير الهين، بل هو خرابٌ للبلاد، وخاصّة إن دخلوها من فورِهم عنوة حانقين.

وفي كلام بلقيس السابق تلخيصٌ بديعٌ لمّا يفعله أي استعمار إذا احتل أي بلد من البلدان من إفساد للبلاد، وإذلال للعباد؛ لذا صدقها الله، وقال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤) أي: هذا ما يفعله الغاصب المحتل المستعمرّ دائمًا. [1]

ولمّا كان الإنسان الناجح لا يكتفي فقط بذكر خطأ ما ذُكِرَ من حلول، بل يذكر العالج الناجع النافع، فبيّنت بلقيس الرأي الصواب الناجح لحلّ هذه الأزمة التي أتت عليهم من حيث لا يحتسبون.

رأي بلقيس الحكيم:

كان رأي بلقيس أن تصانع سُليمان، بأن ترسل إليه بهدية حاضرة فاتنة؛ لتستنزل مودته بسببها ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ (النمل: ٣٥)

قال قتادة: " ما كان أعقلها في إسلامها وشركها!! علمت أن الهديّة تقع موقعًا من الناس." (محمّد الصابوني)

وقد قيل: أنا غنيٌّ، وأحبّ الهديّة!!

ما ماهية هذه الهديّة؟

ذكر المفسرون ماهيّة عجيبة لهذه الهديّة التي أرسلتها بلقيس إلى سُليمان – عليه السلام – فقد قال البغوي: " فأهدت إليه وُصفاء، ووصائف، قال ابن عباس: ألبستهم لباسًا واحدًا كي لا يعرف الذكر من الأنثى." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وقال وهب وغيره: " عمدت بلقيس إلى خمسمئة غلام، وخمسمئة جارية، فألبست الغلمان لباس الجواري ...، وألبست الجواري لباس الغلمان ...، وأرسلت إليه المسك،

---

[1] – أكثر المفسرين ذكروا أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤) هو من كلام الله تعالى، لا من كلام بلقيس، والله أعلم بالصواب.

والعنبر، والعود، وعمدت إلى حقّة، فجعلت فيها درّة ثمينة غير مثقوبة، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب، وأرسلت مع الهديّة رجالًا من عقلاء قومها، وكتبت معهم كتابًا إلى سُليمان بالهديّة، وقالت: إن كنت نبيًّا، فميّزْ ليَ بين الوصائف والوصفاء، وأخبرني بما في الحقّة قبل أن تفتحها، واثقب الدُّرَّ ثقبًا مستويًا، وأدخل خيطًا في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس، ولا جنّ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وهذا بلا شكَّ من الإسرائيليّات المكذوبة الباطلة، فصُنْ سمعك عنها، واحذر منها في أي كتاب من كتب التفسير تجدها؛ لذا نقول: أرسلت بلقيس بهديّة لا نشكُّ في نفاستها، ولكننا لا نستطيع أن نحدّد ماهيّتها لعدم وجود دليل يقطع بذلك.

من الذي حمل هدية بلقيس لسليمان؟

حمل هذه الهدية رجال دهاة، كأنَّهم استخباراتٌ عسكريّةُ سريّةُ؛ لينظروا عن قرب مدى قوّة سُليمان.

قال النجار: " والظاهر أنها كانت تريد إرسال الهديّة أن يقف رسلها على أحوال هذا المَلك الذي أرسل يتهددها على غير جريرة، ويطلب حضورها إليه خاضعة بلا تردّد، ثم يعودون إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته، وقوّته في مُلكه، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة إذا لم تخضع لأمره؛ لتكون على بيّنة ممّا تأتي، وتدع، وتكون على رأس أمرها حتى إذا فعلت أمرًا فعلته بعد تقدير عواقبه." (محمّد الصابوني)

كم كان عدد هؤلاء الرسل الذين حملوا الهديّة؟

يذكر بعض المفسرين: أن عددهم كان واحدًا، واستدلّوا على ذلك بقول سُليمان: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النمل: ٣٧)، بينما الصواب أنهم كانوا أكثر من واحد، فقد قالت بلقيس: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ (النمل: ٣٥)، وهذا يدلّ على أنهم كانوا أكثر من واحد، أمّا قول سُليمان: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النمل: ٣٧)، فيحتمل أنه خاطب به رئيس الوفد.

انتظار بلقيس تقرير رسلها:

كانت بلقيس منتظرة بفارغ الصبر ما يرجع به رسلها الاستخباريون، ونلحظ هذا الترقب في قولها: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ (النمل: ٣٥) أي: منتظرة نتيجة وَقْعِ هذه الهدية على سُليمان، هل هو من الملوك الذين يرغبون في الدنيا وزخارفها؟ أم هل هو غير ذلك؟

قال ابن عباس: " قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا، فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق، فاتّبعوه. " (ابن كثير: ١٩٨٧)، والله أعلم بصحة تلك المقولة.

وصول هدية بلقيس إلى سليمان:

ذهب الرسل بالهديّة الثمينة إلى سُليمان، **فكيف استقبل سُليمان هدية بلقيس؟**

ذكر المفسرون كيفيّة عجيبة لذلك الاستقبال، وهي: " أن سُليمان أمر الجنّ أن يضربوا لبنات الذهب، ولبنات الفضة، ثم أمرهم أن يفرشوا الطريق من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات الذهب والفضة!

وأن يعدوا في الميدان أعجب دوابّ البرّ والبحر، فأعدوها، ثم قعد على سريره، وأمر الشياطين أن يصفوا صفوفًا فراسخ، وأمر الإنس واصطفوا فراسخ، وأمر الوحوش، والسباع، والهوام، والطير، فاصطفوا فراسخ عن يمينه، وعن ويساره، فلمّا دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سُليمان، ورأوا الدوابّ التي لم ترَ أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة، تقاصرت أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا، ثم كان أن استعان سُليمان بجبريل، والشياطين، والأرضة في الإجابة عمّا سألته عنه." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وهذا ممّا لا شكَّ فيه أنَّ ذلك مأخوذ من الإسرائيليّات المكذوبة، قال أبو شهبة: " وأي ملك في الدنيا يتسع لفرش تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة." (محمّد أبو شهبة: ١٤٠٨هـ)

والذي يبدو أن استقبال سليمان لهديتهم كان استقبالًا عاديًّا.

تغيظ سليمان على بلقيس وقومها:

عندما رأى سُليمان هديّتَهم هذه قال لهم منكرًا عليهم، ومتغيظًا على عدم إجابتهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾ (النمل: ٣٦)

و(بل) هنا تفيد الإضراب عمّا ذكره سُليمان من التعليل للإنكار الذي أبداه، والاستخفاف الذي ظهر عليه إلى توضيح ما هم عليه من ضيق في الفكر، حيث ظنّوا أن مثل هذه الهديّة قد تفيد في صرفه عن دعوته لهم إلى التوحيد.

والمعنى: أي قال سُليمان: افهموا أيها الرسل، وبلغوا مَنْ أرسلكم بهذه الهديّة، أن سُليمان لا حاجة له بأموالكم عامّة، وهديّتكم هذه خاصّة، فما أتاني الله من نبوة وملك أفضل بكثير من جميع ما عندكم، وبلغوهم: افرحوا أنتم بهديتكم، وأموالكم، فأنتم لا همَّ لكم إلّا متاع الدنيا الزائل، أمّا أنا فلا أفرح بحطام الدنيا الفانية، فأنا غني عنها؛ وذلك لأنّ كل همّي نشر الدين المستقيم.

يا الله!! تأمّل الفرق بين همّ أهل سبأ، وهمّ سُليمان، أهل سبأ كان كل همّهم متاع الدنيا الزائل، فكانت تصرفاتهم تصرفات ماديّة رخيصة، بينما كان همّ سُليمان عاليًا شريفًا، فكانت تصرفاته تصرفات ساميّة رفيعة!!

وهذه الصفة القيادية السابعة لسليمان، وهي علوُّ الهمّة، وشرفُ المهمة!

ردّ سليمان الحاسم على هدية بلقيس:

كان قرار سُليمان النهائي، وردّه السامي العالي على هدية بلقيس، بأن طلب سُليمان – وبقوّة – من رئيس الوفد ومن غير كتاب، أن ينقل ردَّه الشفوي الحاسم على وجهته لقومه وملكته، فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النمل: ٣٧) أي: ارجع بهديتك هذه إلى من أرسلك بها، وقل لهم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (النمل: ٣٧) أي: لنأتينَّكم بجيش عظيم عرمرم لا تستطيعون مجابهته، فضلًا عن مقاتلته، ولنخرجنكم من أرضكم، وأنتم مهانون أذلاء.

الرسل الاستخباريون يقدمون تقريرهم المفصل لبلقيس:

هكذا انتهت مهمة الرسل الاستخباريين في أرض سُليمان، ورجعوا إلى بلادهم، وهم يحملون شعورًا عجيبًا ممّا شاهدوه من عظمة مُلك سُليمان أوّلًا، وممّا سمعوه منّه ثانيًا، وأخبروا بلقيس وقومهم بما شاهدوا، وسمعوا.

عندها استسلمت بلقيس، وانقادت لسُليمان، وشدّت رحالها، وأحمالها، وسارت إليه بجماعتها.

سليمان يأمر بإحضار عرش بلقيس:

علم سُليمان أنهم لا بدَّ أن يسيروا إليه، وينقادوا لأمره، فطلب طلبًا عجيبًا، وهو إحضارُ عرشِها إليه، وذلك قبل مجيئها وقومها إليه مسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨) أي: قال سُليمان لمن كان حاضرًا من جيشه: مَنْ منكم يستطيع أن يأتيني بكرسي ملكها قبل أن يأتوني طائعين؟

وفي طلب سُليمان العجيب تطرح تساؤلات عدّة مهمة، وهي:

١. لِمَ اختار سُليمان العرش بالذات هو الذي يُحضر؟

اختيار سُليمان العرش بالذات هو الذي يُحضر؛ لأنّ العروش رمز عزّة الممالك وسلطانها.

٢. لِمَ أراد سليمان أن يحضر عرشها قبل مجيئها إليه؟

أراد سُليمان إحضار عرشها قبل مجيئها؛ لأجل أن يتصرّف فيه ممّا عزم عليه من حيلة، وذلك قبل مجيئها وقومها، وهم مسلمون؛ لأنّهم بإسلامهم تكون أموالهم محترمة، ولن يستطيع أن ينفّذ حيلته.

لله درُّك يا سُليمان نبيًّا كريمًا حكيمًا!!

٣. كيف علم سُليمان بمجيء أهل سبأ إليه مسلمين؟!

يحتمل أنه كان وحيًّا من الله تعالى، ويحتمل أنه قد توقّع ذلك لمّا شاهده من عقل بلقيس، ورجاحة فكرها.

٤. متى قال سُليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨)؟

اختلف العلماء والمفسرون في ذلك على قولين:

القول الأوّل: قال سُليمان ذلك عندما أخبره الهدهد بنبأ بلقيس، فكان هذا القول منه كاختبار للهدهد أهو صادقٌ أمْ كاذبٌ، فلمّا قال سُليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨) المعنى: إن حضر هذا العرش العظيم فالهدهدُ صادقٌ، وإن لم يحضر عرفنا كذبه.

القول الثاني: قاله سُليمان بعدما قال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٨)

الحاصل: طلب سُليمان إحضار عرشها، وفي طلبه هذا تظهر الصفة القيادية الثامنة، وهي الفطنة وذكاء الحيلة، حيث بهذا الإحضار يُطلِعُ بلقيس على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما منحه الله من منح وخوارق، وكل ذلك سيقودها وقومها للإيمان بالله تعالى.

تبادر جنود سليمان لإحضار العرش:

ما أن سمع مَنْ كان حاضرًا عند سُليمان ما طلبه ملكهم منهم، إلّا أجابه أوّلًا عفريت من الجنّ (أي: المارد القوي من الشياطين) قائلًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩) أي: " قال مارد من الشياطين أنا أحضره إليك قبل أن تفرغ من مجلس حكمك، وتقوم، وإني على حمله لقادر وأمين على ما فيه من الجواهر، والدرّ، وغيرها." (محمّد الصابوني)

قال الصابوني: " كان سُليمان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم، وغرض (المارد) أنه يأتيه به في أقلّ من نصف نهار." (محمّد الصابوني)

ثم نهض جندي آخر، وقدم عرضًا أبلغ من عرض صاحبه السابق، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل:

٤٠)، أي: قال الذي عنده علم من الكتاب [١]: أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن يرتدّ إليك طرفك، وهذا كناية على السرعة الفائقة في إحضاره، وفي ذلك إشارة إلى فضل العلم، وشرف حامله، حيث حاز هذا الشخص هذه الكرامة بسبب ما آتاه الله من العلم.

ما المقصود بقول الذي كان عنده علم من الكتاب: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)؟

ذُكرت أقوالٌ عدة، منها:

- أي: سآتيك بالعرش" قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض، ثم يعود إليك." (ابن كثير: ٢٠٠٢)
- أي: سآتيك بالعرش " قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس." (ابن كثير: ٢٠٠٢)
- أي: سآتيك بالعرش " قبل أن يكلّ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك." (ابن كثير: ٢٠٠٢)
- أي: سآتيك بالعرش " قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته." (ابن كثير: ٢٠٠٢)
- أي: سآتيك بالعرش في لمح البصر.

والله أعلم بالصواب.

---

[١] – **اختلف في مَنْ هذا الذي كان عنده علم من الكتاب على أقوال، منها:** هو: –(آصف بن برخيا) كان من الصدّيقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب. (محمّد الصابوني)

–كان رجلًا من بني إسرائيل من علمائهم. (ابن كثير: ٢٠٠٢)

– قيل: إنه سُليمان نفسه. (ابن كثير: ٢٠٠٢)

– قيل: جبريل. (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وكل ما ذكر سابقًا عن ماهيّة هذا الذي عنده علم الكتاب ليس له دليل شرعي صحيح من القرآن، أو من السنّة الشريفة، بينما ذهب السعدي إلى: " إن الذي عنده علم من الكتاب (كان) من الأسباب التي سخّرها الله لسُليمان، أسباب يحصل بها تقريب المواصلات، وجلب الأشياء البعيدة." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢) والله أعلم بالصواب.

عرش بلقيس بين يدي سليمان:

وصل العرش العظيم، ووضع أمام سُليمان الحكيم بحرص، وانتباه، واهتمام، فلمّا رأى سُليمان عرشها ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ (النمل: ٤٠) أي: حاضرًا أمامه ثابتًا عنده، فلم يغترّ، ولم يتكبر، ولم يأخذه الزهو والعجب، بل حمد الله قائلًا: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ (النمل:٤٠) أي: هذا إحسان ربّي عليّ وفضله ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (النمل:٤٠) أي: ليختبرني بذلك.

قال السعدي: " فلم يغترّ – عليه السلام – بملكه، وسلطانه، وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم – عليه السلام – أن ذلك اختبارًا من ربّه، فخاف ألّا يقوم بشكر هذه النعمة." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

لله درّك يا سُليمان نبيًّا مخبتًا كريمًا!!

ثم وضّح – عليه السلام – أن الشكر من العبد لا ينتفع به الله سبحانه، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه؛ لذا قال سُليمان: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ (النمل: ٤٠)

سليمان يأمر بتنكير عرش بلقيس:

ولمّا قَرُبَ وصول بلقيس إلى بلاد سليمان أمر أن تُغَيّر معالم عرشها، فقال عليه السلام: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ (النمل: ٤١) أي: غيّروا لها عرشها، والتنكير هو ضد التعريف، والتنكير هو جعل: الشيء على هيئة تخالف الحالة السابقة حتى لا يعرف.

ويتساءل هنا: لِمَ نكر سُليمان عرشها؟

الجواب: أراد سُليمان أن يختبر عقلها.

وما علاقة تنكير العرش باختبار عقلها؟

بينهما علاقة قويّة، حيث إنها لمّا تتفاجأ باطّلاعها على عرشها، الذي خلفته وراءها في بلادها، وهو مختلف، سيدلّ حسن تصرفها على عقلها؛ لذا قال سُليمان بعدها: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ (النمل: ٤١) أي: لنعرف هل

ستهتدي إلى الجواب المناسب بالمقام عندما تسأل أهذا عرشك؟ أم لا تهتدي للجواب الصحيح عندما تسأل عنه؟

المفاجأة الأولى لبلقيس في مُلك سليمان:

وصلت بلقيس، وفوجئت بأوّل ظاهرة عجيبة، حيث عرض عليها عرشها بعد تنكيره، وقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ (النمل: ٤٢)!!

وتأمّل – وفقك الله للحقّ: لَمْ يقل لها: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقينًا لها بالجواب!

تفحصت بلقيس بنظرها العرش، وأخذت تدور الإجابة في عقلها، فلم تجزم بأنه هو؛ لأنّه وإن كان الذي أمامها يشبه عرشها بشكل كبير حسب ظنّها، إلّا أنها على يقين بأنها خلفت عرشها خلفها، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، وصادق على الحالين، حيث قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ (النمل:٤٢)!!

تعجب سُليمان من عقلها وحكمتها، وشكر الله أن أعطاه أعظم ممّا أعطاها، فقال: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ (النمل: ٤٢) أي: أعطانا الله العقل المستنير، والحكمة البالغة، والحزم الماضي، والهداية الدائمة من قبل هذه الملكة ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ (النمل: ٤٢) ويقصد كنا مهتدين الهداية النافعة الأصيلة، وهي الاستسلام لله تعالى.

ولما كان من الوارد أن يقال: إن كان حال هذه المَلكة من الذكاء والفطنة هكذا، **فلِمَ كانت كافرة؟**

أجاب الله تعالى عن هذا التساؤل بأن بيّن سبب كفر بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ (النمل: ٤٣) أي: الذي منعها عن الإيمان بالله هو كفرها، وعبادتها القديمة، وبسبب نشوئها وسط قوم مشركين، فاتّبعت دينهم، وفي هذا إشارة قوية إلى دور البيئة الكبير الخطير في تشكيل عقول الناس ومذاهبهم.

المفاجأة الثانية لبلقيس في مُلك سليمان:

بعدما تفاجأت بلقيس بالمفاجأة الأولى – وهي وجود عرشها المُنَكّر – إذ بها تفاجأ بالظاهرة الثانية الأشدّ عجبًا، وهي الطلب منها دخول الصرح، حيث قيل لها: ﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ (النمل: ٤٤)

والصرح: القصر، ويطلق على كل بناء مرتفع، ويطلق – أيضًا – على ساحة الدار.

وقال السعدي: هو: " المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلس من قوارير (زجاج)، وتجري من تحته الأنهار." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

لِمَ بنى سُليمان هذا الصرح؟

في سبب بناء سُليمان هذا الصرح يذكر المفسرون – غفر الله لهم – إسرائيليّة مكذوبة، وهي:

" إنّ سُليمان أراد أن يتزوجها، فقيل له: إن رجليها كحافر الحمار، وهي شعراء الساقين، فأمرهم، فبنوا هذا القصر على هذه الصفة، فلمّا رأته حسبته لُجّة، وكشفت عن ساقيها لتخوضه، فنظر سُليمان، فإذا هي أحسن الناس قدمًا وساقًا، إلّا أنها كانت شعراء الساقين، فكره ذلك فسأل الإنس ما يذهب هذا؟

قالوا: الموسى، فقالت بلقيس لم تمسّني حديدة (أي الموسى الذي يزيل الشعر) قطّ، وكره سُليمان ذلك، خشية أن تقطع ساقيها، فسأل الجنّ: فقالوا: لا ندري؟ ثم سأل الشياطين، فقالوا: إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء، فاتّخذوا لها النورة (أي: مادة تستخدم لإزالة الشعر) والحَمّام، فكانت النورة والحَمّام من يومئذ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " وهذا كذب ظاهر، كأن النورة والحَمّام لم يكونا إلّا لها، وكأن سُليمان – عليه السلام – لم يكن له همّ إلّا إزالة شعر ساقيها، وهو تجّن صارخ على الأنبياء، وإظهارهم بمظهر المتهالك على النساء ومحاسنهم، فقبّح الله اليهود." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

فما الحقّ في سبب بناء سُليمان هذا الصرح؟

قال أبو شبهة: " والحقّ أن سُليمان – عليه الصلاة والسلام – أراد ببنائه الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله – سبحانه وتعالى – أعطاه من المُلك، ومن أسباب العمران والحضارة ما لم يعطها، فضلًا عن النبوّة التي هي فوق المُلك، والتي دونها أية نعمة، وحاشا لسُليمان – عليه السلام – وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكمًا يوافق حكمه – فأوتيه – أن يتحايل هذا التحايل؛ حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه، وهما ساقاها، وهو أجلّ من ذلك وأسمى.

ولولا أنها رأت من سُليمان ما كان عليه من الدين المتين، والخلق الرفيع، لمّا أذعنت إليه لمّا دعاها إلى الله الواحد الحقّ، ولما ندمت على ما فرط منها من عبادة الكواكب والشمس، وأسلمت مع سُليمان لله ربّ العالمين." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

دخول بلقيس الصرح:

دخلت بلقيس الصرح فرأت عجبًا، رأت مجلسًا فخمًا مصنوعًا من الزجاج الشفاف الصافي، ويجري تحته ماء غمر كثير، وكان مصمّمًا بشكل هندسي بديع، ممّا جعل بلقيس تظنّه لجّة ماء (أي: ماء كثير الجريان) ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ (النمل:٤٤)، فما كان منها إلّا ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ (النمل:٤٤)؛ لتخوض هذا الماء حسب ظنّها!!

ولعلك تتساءل: لِمَ لَمْ تمتنع بلقيس من خوض ما ظنّته أنه ماء أساسًا؟

قال السعدي: " وهذا من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحلّ الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلّا للإكرام، وأن مُلك سُليمان، وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شكّ من حالة السوء ما رأت." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

الحاصل: لمّا أكملت بلقيس استعداداتها للخوض في الصرح بهذه الهيئة، قيل لها توقفي: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤) أي: إنه مجلس متسع ناعم الملمس، مصنوع من الزجاج الصافي الشفاف.

بلقيس تشهر إسلامها على يد سليمان:

رأت بلقيس من الدلائل ما بهر عقلها، ومن الخوارق ما أدهش فكرها، فأعلنت إسلامها، وتبرأت ممّا كانت عليه وقومها من كفر وضلال، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)

قال الأنصاري: " حقيقة المعيّة: الاتّفاق في الزمان، وسُليمان كان مسلمًا قبلها." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وتأمّل – يا رعاك الله: قالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، ولم تقل: وأسلمت على يد سُليمان، فما السرّ في ذلك؟

قال الأنصاري: " لأنّها كانت ملكة، فلم تذكر عبارة تدلّ على أنها صارت مولاة له بإسلامها، وإن كان الواقع ذلك." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

هل تزوج سُليمان بلقيس؟

نقل ابن كثير قولين: الأوّل أنه تزوجها، والثاني أنه لم يتزوجها.

والصحيح التوقف في ذلك لعدم وجود دليل يقطع بالجواب الصحيح.

هكذا انتهت قصّة سُليمان مع بلقيس نهاية سارة مفرحة، حيث أسلمت مع سُليمان لله ربّ العالمين، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ!!

وصلنا الآن إلى زبدة هذه القصة الشيقة!!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– في القصّة تعليم عظيم لصفة التواضع، حيث كتب سليمان لبلقيس: ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل: ٣٠]، وتأمّل مع كون سليمان ملكاً إلّا أنّه لم يذكر مدحاً له لا قبل اسمه، ولا بعده، حيث ذكر اسمه فقط، وهذا يدلّ على كمال تواضعه.

– تعدّ بلقيس مثالاً للمرأة العاقلة، التي لا تتحيّز للباطل، ولا تميل للهوى والمعصية، فلم تجعل العصبية لقبيلتها ودينها تتحكّم فيها، وتحجب عنها نور الحقيقة، فقرأت رسالة سليمان بإمعان، وتدبّر، وتخلت عن الهوى والتكبر.

– كانت بلقيس مثالاً للمرأة الصادقة المنصفة، وذلك من خلال وصفها لكتاب سليمان بأنّه كريم.

– حرصت بلقيس على تقديم الخير للجميع، وذلك من خلال إعلانها على الملأ حقيقة كتاب سليمان، قال تعالى : ﴿**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ (النمل: ٣٠، ٣١)

– أظهرت القصة حقيقة المرأة التي تسعى إلى السلام، وتنفر من الحرب والدمار، حيث قالت بلقيس: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**﴾ [النمل: ٣٤]، لذلك لم يكن لجوؤها إلى الرشوة المتمثلة بالهدية إلى سليمان أمراً مستغرباً.

– كانت بلقيس مثالاً للمرأة العفيفة الطاهرة، التي تدرك أنّ الاحترام لا يُكتسب من خلال عرض مفاتن الجسد، والإثارة، والإغراء، فلم تلجأ إلى ذلك؛ لتبعد عنها زحف سليمان – عليه السلام.

– كانت بلقيس أنموذجاً للمرأة التي فهمت حقيقة الإسلام، فقد أدركت أنّه ولاء خالص لله – عزّ وجل، ولا علاقة له بالتعلّق بالأشخاص، وقد تبيّن ذلك عندما لبت بلقيس نداء سليمان عندما قال:﴿ **وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ (النمل:٣١)، فقالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (النمل: ٤٤)

– الإيجابيّة عند الهدهد:

كثيرٌ من الناس إذا ما واجهت مجتمعه مشكلة، يقلّل من شأن نفسه، وينظر إلى نفسه نظرة دونيّة! وإذا تجرّأ، وفكّر في المشكلة سُرعان ما يخاطب نفسه، ويقول: من أنا؟ وماذا يمكنني عمله؟ وهل يمكن لمثلي أن يقترح شيئًا ذا قيمة؟!

لمثال هؤلاء، نقول: أَعِدْ قراءة خبر هدهد سُليمان!!

فهدهد سُليمان كان طائرًا صغيرًا في جيش سُليمان الكبير، ومع صغر حجم هذا الهدهد موازنة بغيره من الجند والقادة، إلّا أنه كان يمتلك همّة عالية، وإيجابيّة نشيطة، جعلته يتحرك لهذا الدين الذي يؤمن به بتفانٍ عالٍ، وهمّة صادقة، وإخلاص تامّ،

وبدون تكليف مسبق، ولا تنفيذ لأمر صادر، ولا إجابة لطلب من مسؤول، وجلب للقيادة المؤمنة خبرًا مهمًا أدى إلى دخول أمّة كاملة في الإسلام.

تلك الهمّة، وقل إن شاءت: الإيجابيّة، هي التي دعت هذا الهدهد البسيط لتخطي القائد، ولكن في نطاق الفائدة.

وهكذا الفرد الإيجابي الفعّال ضمن الجماعة الفاعلة، لا يخرج عنها، وإنما يخرج عنها؛ ليعود إليها بكل خير، ونفع، وفائدة.

هذا الهدهد ترك الراحة، والأمان؛ لينطلق لاستكشاف الخير، لا لاستكشاف الكنوز الخرافيّة، والحقائق السرابيّة.

عَرّضَ نفسه للعقاب الأكيد، والوعيد الشديد في حال إخفاقه في صيد الثمين ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ (النمل: ٢١)

لكنه يعلم علم اليقين، أنّ الهمّة العالية الخالصة لله، لا تودي إلّا إلى طريق واحد، ألا هو طريق النجاح، وبالفعل نجح في مقصده، وأنقذ نفوسًا من النار، وأطلقها من نير الشرك إلى سماحة التوحيد والإسلام.

o o o o

قصّة كفالة زكريا لمريم

البداية:

قصّ الله علينا قصّة كفالة نبي الله زكريا لمريم، وتبدأ هذه القصّة بنذر نذرته امرأة عمران [1]حينما بانَ حملها بأنَّ تُحرر ما في بطنها لبيت المقدس؛ ليكون خادمًا لبيت الله، معدًّا لعبادة الله، وكانت تظنّ أن الذي في بطنها ذكرًا.

قال تعالى:﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ (آل عمران: ٣٥) أي: اذكر – يا محمّد – لقومك قول امرأة عمران حينما بان حملت: يا ربّ، إني جعلت ما في بطني خالصًا لك، ولخدمة بيتك المقدّس، فيا ربّ، تقبل مني، إنك أنت – يا ألله – وحدك السميع لدعائي، وتضرّعي إليك، والعليم بنيّتي وضميري، وما يدور في نفسي وعقلي.

وتأمّل – يا رعاك الله: هذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ (آل عمران: ٣٥)، ففيه أسمى ألوان الأدب والإخلاص، فقد توجّهتْ – رضي الله عنها – إلى خالقها بأعزّ ما تملك في هذه الدنيا، توجّهت بجنينِها الذي ما زال في بطنها، توجّهت به ملتمسة من الله تعالى أن يقبل نذرها.

زيادة وتفصيل:

١. لِمَ نذرت امرأة عمران هذا النذر؟

قال العدوي: " في الغالب – كما ذكر بعض أهل العلم – أن المرء إنما يريد ولده للأُنس به، والاستنصار، والتسلي، ومنهم من يريده كي يُذكرَ به بعد موته، وأن يستغفر له كذلك، فكان من شأن امرأة عمران لما منّ الله – تبارك وتعالى – عليها بالحمل أنها

---

[1] - أمُّ مريم قيل: اسمها حنّة بنت فاقوذ، هكذا قال المفسرون، ولم يرد شيء صحيح يدلُّ على أن اسم أم مريم هو حنّة بنت فاقوذ.

نذرت أنّ حظَّها به من الأُنس متروكٌ لله، ونصيبُها منه متروكٌ لخدمة بيت الله – عزّ وجلّ، ومثل هذا النذر صحيح والله تعالى أعلم." (مصطفي العدوي: ٢٠٠٢)

٢. لِمَ ختمت امرأة عمران دعاءها بـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥)؟

ختمت امرأة عمران دعاءها بـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥) لاستدعاء القَبول؛ وذلك من حيث إنّ علمه تعالى بصحة نيّتها، وإخلاصها، مستدع لقبول نذرها، تفضلًا من الله، وكرمًا.

ربي إني وضعتها أنثى:

وضعت امرأة عمران حملها، وتبيّنت أن مولودها أنثى، فقالت معتذرة إلى الله شاكية إليه الحال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦) " وكأنها تشوّقت أن يكون ذكرًا؛ ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعًا، ففي كلامها نوع عذر من ربّها." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وقبل إكمال قول أمّ مريم تأتينا هذه الوقفة من الله – تعالى – حيث بعدما سمع سبحانه مقالتها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (آل عمران: ٣٦) أي: لا يحتاج سبحانه إلى إعلامك، أليس هو الذي يعلم ما تزداد به الأرحام، وتغيض؟! بلى، إنه العليم الخبير.

وهذا القول من الله – تعالى – به إيماءٌ بديعٌ إلى تعظيم هذا المولود الذي وضعته، وتفخيم لشأنه، وللإشعار بأن هذه الأنثى سيجعلها الله تصلح لمّا يصلح له الذكور من خدمة بيته.

نعود إلى أمّ مريم فقد أكّدت اعتذارها قائلة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦) أي: ليس الذكر كالأنثى في القوّة، والجلادة، والصبر، والقدرة على خدمة المسجد، فإنَّ الذكر – بلا شكّ – أقوى على ذلك من الأنثى، كما أنّ الأنثى قد لا تستطيع في بعض الأحوال الدخول إلى المسجد لِما قد يعتريها من حيض ونفاس.

زيادة وتفصيل:

١. ما مراد امرأة عمران بـ ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦)؟

مراد امرأة عمران من قولها هذا هو تفضيل الذكر على الأنثى من حيث القوّة، والجلد، والصبر على خدمة المسجد، وثَمَّتْ أمورٌ أخرى يفضل بها الذكور على الإناث منها: قوامة الرجل على المرأة، وكون الأنبياء من الرجال وغيرها.

٢. هل قول امرأة عمران ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦) تحصيل حاصل؟

الإجابة: لا، ليس قولها هذا تحصيل حاصل؛ لأنّها لمّا نذرت أنّ ما في بطنها يكون خادمًا لبيت المقدس، تفاجأت بأنَّ مولودها أنثى، فأكّدت بقولها ليس الذكر كالأنثى على حقيقة أنّ الأفضليّة في خدمة المسجد تكون للذكور.

وهكذا وضعت امرأة عمران مولودها، وسمّتها مريم، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٣٦) ومريم معناه في لغتهم: العابدة، وخادمة الربّ.

وإنّي أعيذها بك وذرّيّتها من الشيطان الرجيم:

أعاذت امرأة عمران مريم وأولادها بالله تعالى من شرّ الشيطان الرجيم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦) " فحصنتها بالله من عدوّها هي وذرّيّتها، وكان هذا أوّل حفظ وحماية من الله لها." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ما من بني آدمَ مولودٌ إلّا يمسُّهُ الشيطانُ حينُ يولدُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا من مسّ الشيطانِ، غيرَ مريمَ وابنِها، ثم يقولُ أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦)**" (رواه البخاري: (٣٤٣١)، واللفظ له، ومسلم: (٢٣٦٦))

وفي التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذرّيّتها من الشيطان الرجيم رمز إلى طلب بقائها على قيد الحياة؛ حتى تكبر، وتكون من الذرّيّة الصالحة.

فتقبلها ربها بقبول حسن:

بهذه الكلمات الطيبات والدعوات الخاشعات دعت امرأة عمران ربَّها عندما أحسّت بحملها، وعندما وضعته، فما كان من البر الرحيم إلّا أن تقبّلَ مريم قَبولًا حسنًا ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) أي: " إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – تقبلها من أمّها لمّا نذرت ما في بطنها، ورضيها وفاءً بالنذر الذي نذرته، وسلك الله بها مسلك السعداء، وطريق الأتقياء." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

وتأمّل – وفقك الله للحقّ: الفاء في قوله تعالى (فتقبلها)، حيث جاءت الفاء تفريعًا على الدعاء مؤذنة بسرعة الإجابة.

وتأمّل أيضًا: لم يقل تعالى: (فتقبلها ربها تقبلًا حسنًا)، بينما قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (آل عمران: ٣٧)؛ لأنّ القبول يقتضي الرضى والإثابة.

ولم يتقبلها سبحانه وحسب، بل: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران: ٣٧) أي: سوى الله خلقتها من غير زيادة أو نقصان، ومنحها صورة جميلة حسنة، وهذّب أخلاقها وحَسّن خُلقها فكملت خَلقًا وخُلقًا، فكان حالها كحال النبات الطيب الذي ينمو في الأرض الصالحة؛ حتى يؤتي أكله.

وفوق هذا وذاك ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧) أي: " جعل زكريا كافلًا لها متعهدًا للقيام بمصالحها." (محمّد الصابوني)

كفالة زكريا المباركة الميمونة لمريم البتول:

حدثت هذه الكفالة المباركة الميمونة لمريم بحدث عجيب، حيث ما أن ولدت مريم إلّا وتنازع بنو إسرائيل أيُّهم يكفلها؟! واختصموا في ذلك اختصامًا كبيرًا؛ لنيل شرف تربية هذه الفتاة الطيبة حسنة الأصل، والمنشأ، وخروجًا من الخلاف، ورَغْبَةً في الاتّفاق، اتّجهوا إلى إجراء قرعة فيما بينهم، **فكيف أجروا القرعة بينهم؟**

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران: ٤٤)

قال بعض العلماء: " ألقوا جميعًا الأقلام في الماء، فمن ثَبَتَ قلمُه كفلها، ومن جرى قلمه مع الماء الجاري لم يكفلها، فجرت أقلامهم جميعًا، وثبت قلم زكريا – عليه السلام، فكفلها زكريا – عليه السلام." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

وهكذا نال زكريا – عليه السلام – شرف كفالة مريم، كما صارت كفالته لمريم – عليهما السلام – رحمة بمريم، ورفقة بها، حيث إنّ زكريا كان أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الزمان، وبالفعل قد أينعت تربية زكريا الحسنة لمريم، حيث صارت مريم العذراء البتول من النساء الأربعة المذكورين في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم: " **خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد.**" (رواه الحاكم في المستدرك: (٤٧٣٣)، والطبراني في المعجم الكبير: (١٠٠٤)، وابن حبان: (٦٩٥١))

تصحيح: هل كانت مريم وفاطمة لا تحيضان؟

قال العدوي: " لم نقف على شيء ثابت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك، والأصل أنهما كسائر بنات آدم." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

لذا القول الصحيح أنهما كانتا تحيضان كسائر بنات آدم، والله أعلم.

ونختم هذه الكفالة الميمونة بهذه الفوائد الفريدة!

الفوائد المستفادة من القصّة:

– امرأة عمران ضربت القدح المعلى للأم المثالية التقية، حيث إنها ربت ابنتها مريم تربية إيمانية عظيمة، وذلك من لحظة حملها بها، بأن وهبتها لخدمة بيت الله المقدس، ثم عند وضعها أعاذتها بالله، وذريتها من الشيطان الرجيم، وأحسنت اختيار اسمها حيث سمتها مريم أي العابدة، أو خادمة الرب، وهذه التربية الحسنة آتت أكلها بأن تقبلها ربها بقبول حسن، وأنشأها نشأة حسنة، فأنعم بها من تربية!!

– في هذه القصّة بيان واضح لتأثير البيئة الكبير والخطير، وتأمّل أثر البيئة التي نشأت فيها مريم حيث نشأت في بيت الله، وما أدراك ماذا يعني مكث الإنسان في بيت الله! ثم كفالة نبي زمانهم زكريا لها، ممّا صقل شخصية مريم الإيمانية.

– تضمنت القصّة دليل على جواز النذر، والنذر: " ما يوجبه الإنسان على نفسه من أعمال البر والطاعة." (محمد الصابوني)

كأن يقول إنسان: لله عليّ أن اعتمر هذا العام، أو: لله عليّ أن أصوم يومًا، إلى غير ذلك من الطاعات والقربات.

وحكم النذر: أنه متى صدر النذر بشروط إيجابه الصحيحة وجب الوفاء به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)

ولقوله صلى الله عليه وسلم: " **من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه الله فلا يعصه.**" (رواه البخاري: ٦٦٩٦)

o o o o

قائمة المراجع

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، بدون سنة نشر.

٢. إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار الكتب العلمية, ١٩٩١م.

٣. أبو القاسم القشيري، لطائف الإشارات، مركز تحقيق التراث، ١٩٨١ م.

٤. أحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢ م.

٥. أحمد بن عبد الله العماري الزهراني، تأمّلات قرآنية: من نبأ موسى وفرعون، مجلة معهد الإمام الشاطبي، العدد الأوّل، ١٤٢٧ هـ.

٦. أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار مصر للطباعة، ٢٠٠٢ م.

٧. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمّد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٨. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٩. القاضي عياض بن موسى بن عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الحديث، ٢٠٠٤ م.

١٠. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون سنة نشر.

١١. بدر الدين بن مالك الدمشقي ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١ م.

١٢. حافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، دار الحديث، ١٩٩٩ م.

١٣. خالد بن حامد الحازمي، مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمّة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، ١٤٢٥ هـ.

١٤. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، دار ابن عفان, ١٤٢١ هـ.

١٥. زكريا بن محمّد بن أحمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية،٢٠٠٣ م.

١٦. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٨٦ م.

١٧. شمس الدين ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار ابن رجب، ٢٠٠٢ م.

١٨. شمس الدين ابن القيم الجوزية، الفوائد، دار ابن رجب، ١٤٢٢ هـ.

١٩. شمس الدين ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، دار المنطلق، بدون سنة نشر.

٢٠. صالح بن الفوزان، التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ٢٠١١ م.
٢١. فضل عباس وسناء عباس، إعجاز القرآن الكريم، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
٢٢. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي – الجزء الأوّل، نادي الأدب بالمنيا، ١٩٨٨ م.
٢٣. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار الآفاق العربية, ٢٠٠٠ م.
٢٤. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.
٢٥. عبد الرحمن ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار الحديث، ١٩٩٩ م.
٢٦. عبد الرحمن حسن حبنكه، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، ١٩٩٦ م.
٢٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١ م.
٢٨. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قَصص الأنبياء فصول في ذكر ما قصّ الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.
٢٩. عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار الكتب العلمية, ٢٠٠٢ م.
٣٠. عدنان محمّد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١ م.
٣١. علي محمّد الصلابي، السيرة النبويّة، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، ٢٠٠١ م.
٣٢. علي محمّد الصلابي، أبو بكر الصدّيق، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، ٢٠٠٧ م.
٣٣. محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٩٨٥ م.
٣٤. محمّد بن إسحاق بن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الربّ عزّ وجلّ، دار الحديث، ٢٠٠٢ م.
٣٥. محمّد بن إسماعيل المقدم، فقه الحياء، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٧ م.
٣٦. محمّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.
٣٧. محمّد بن صالح العثيمين، تقريب التدمرية، مكتبة السنة، ١٩٩٢ م.
٣٨. محمّد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار البصيرة، ٢٠٠١ م.
٣٩. محمّد بن محمّد أبو شبهة، الإسرائيليّات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨ هـ.

٤٠. محمّد بيومي، معجزة الإسراء والمعراج، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٩ م.
٤١. محمّد خليل هراس، دعوة التوحيد أصولها والأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.
٤٢. محمّد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، دار الصابوني، ١٩٩٩ م.
٤٣. محمّد علي الصابوني، النبوّة والأنبياء، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.
٤٤. محمّد علي الصابوني، صفوة التفاسير، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.
٤٥. محمّد نعيم ياسين، الإيمان أركانه، حقيقته، نواقضه، مكتبة السنة، ١٩٩١ م.
٤٦. محمود بن الشريف، مع فتوحات سورة الفتح، دار المعارف، بدون سنة نشر.
٤٧. محمود بن خليفة الجاسم، السحر والإصابة بالعين في ضوء الكتاب والسنّة، دار ابن حزم، ١٩٩٣ م.
٤٨. محمود المصري، قَصص القرآن، دار التقوى،٢٠٠١ م.
٤٩. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، دار ابن كثير، ٢٠٠١م.
٥٠. مجدي محمّد الشهاوي، آيات موسى التسع، دار الطلائع، بدون سنة نشر.
٥١. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢ م.
٥٢. مصطفى بن العدوي، الصحيح المسند في الأحاديث القدسية، مكتبة الإيمان، ٢٠٠٢ م.
٥٣. مصطفى بن العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة آل عمران في سؤال وجواب، دار ابن رجب: ٢٠٠٢ م.
٥٤. مصطفى مراد، السبعة الذين تكلموا في المهد، دار الفجر، ١٩٩٩ م.
٥٥. منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨ م.
٥٦. نصر فحجان، قضايا تفسيرية تحت الضوء، دار الأرقم، ٢٠٢١ م.
٥٧. يحيى بن شرف الدين النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، الدار الثقافية العربيّة، ١٩٢٩ م.
٥٨. يوسف القرضاوي، من هدى الإسلام فتاوى معاصرة، دار القلم، ٢٠٠١ م.
٥٩. يوسف بن إسماعيل النبهاني، علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى، اختصارًا من كتاب الإشاعة لأشراط الساعة، دار ابن حزم، ٢٠٠٠ م.
٦٠. يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل، أشراط الساعة، دار ابن الجوزي، ١٩٩٦ م.